الابتعاث ومخاطره

تأليف

الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

طبعة مزيدة ومنقحة

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الابتعاث ومخاطره

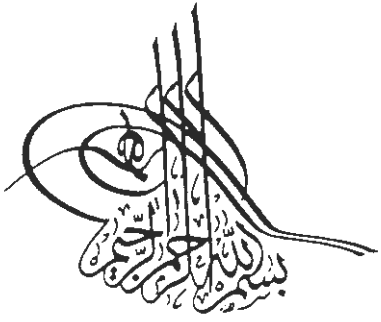
بسم الله الرحمن الرحيم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الابتعاث ومخاطره

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

طبعة مزيدة ومنقحة

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب: ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب: ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب: ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأمي وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذه رسالة كنت كتبتُها قبل سبع عشرة سنة ، وطُبعت عدة طبعات ، ووُزعت على نطاق واسع ولله الحمد والمنة ، وقد نفدت نسخها ، فأحببت ــ عند إعادة طبعها ــ أن أضيف إليها إضافات مهمة وقفت عليها ، من أخبارٍ تؤكد مخاطر الابتعاث غير المنضبط ، وتاريخٍ لحركة الابتعاث الأولى أيام محمد علي حاكم مصر . وقد اقتبست صفحات

من مقدمة أستاذنا الأستاذ محمود محمد شاكر لكتاب «المتنبي» لأهمية تلك الصفحات، وقد نشرت هذه المقدمة مستقلة بعنوان «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» وقد نقلت تلك الصفحات من تلك النشرة المستقلة.

وهناك أمور واقعية وقفت عليها زادتني اقتناعاً بخطورة هذا الأمر، وقفت عليها سواء في رحلاتي التي قمت بها إلى أوربا وخالطت أبناءنا من المبتعثين إليها أو في لقائي لعدد من الذين درسوا هناك.

إن واقع أمتنا واقع مؤلم حيث تقف دول الغرب والشرق موقف المحارب للإسلام، المعادي له، المتربص بأبنائه، تعين اليهود وتؤيدهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾[المائدة: ٥١].

وقد جريت في الكتب التي أقدمها للطبع في السنوات الأخيرة ، ومعظمها من النوع العلمي المتخصص البعيد عن الخوض في أحوال المسلمين جريت على الإشارة في المقدمة إلى هذه الأوضاع والتنبيه على المخاطر التي تواجه الأمة رغبة في قول كلمة الحق لتوعية أبناء أمتي .

إنَّ هذه الحقبة التي نعيشها شهدت أحداثاً رهيبة جداً بالنسبة للعالم كله وبالنسبة لنا نحن المسلمين .

أما بالنسبة إلى العالم فقد انتهت (الحرب الباردة) التي كانت قائمة بين الشرق والغرب ، وتغيرت الأوضاع السياسية للعالم ، وتغيرت خريطته السياسية والفكرية الآن ، فقد سقط الاتحاد السوفيتي وانهار وتجزأ ، واستأثرت الولايات المتحدة الأمريكية بالسيادة والتسلط ، وتعاظم الاستكبار الأمريكي والصليبي وتجبر ، وأصبح الحاكم

المطلق.

وأما بالنسبة لنا فإنّ الشرق والغرب عدوان لدودان للإسلام، وقد تفرغ الآن المعسكر الغربي لمهاجمة الإسلام، فهو يوجه إليه أسلحته المتنوعة من فكرية ومادية، ويُعدُّ خططه وتدبيره ومكره للقضاء على الإسلام والمسلمين، ولنتذكر الأحداث الرهيبة المتمثلة في ذبحٍ للمسلمين في كشمير، وتهديم للمساجد في الهند، وإراقة بشعة للدماء في أفغانستان، وذبح للمسلمين في طاجكستان والبوسنة والهرسك وفلسطين والصومال، وتنكيل بالمسلمين المتدينين في بلادهم، وتضييق عليهم في الرزق والحركة والكلام.

وأود أن أورد شهادة الشاعر نزار القباني في هذه الأوضاع فقد قال:

(عندما كنت أسمع عبارة (الغزو الثقافي) كنت أقف متحفظاً أمام هذه العبارة، وأعتبرها نوعاً من الانغلاق

والتعصب والشوفينية [1].

فقد كنت أرى أنَّ العالم ـ بعد انفجار ثورة الاتصالات ـ أصبح قرية صغيرة، وأن العرب لا يمكنهم أن يظلوا قابعين في مغارتهم، وجالسين كالدجاج فوق بيوضهم، ومستريحين على حرير أفكارهم وأمجادهم، وإلا أخذوا ملامح أهل الكهف.

كنت مؤمناً أنَّ على الفكر العربي أن يخرج من الثلاجة، وأن يفتح نوافذه على كل الرياح، ويكون جزءاً من إيقاع العصر، غير أني أمام كل هذه الظواهر المريبة التي تحاصر حياتنا وبيوتنا ومجتمعنا وتراثنا ولغتنا وعقول وأذواق أولادنا،

(١) جاء في موسوعة الموارد: (الشوفينية: الغلو في الوطنية، وهو تعبير يقصد به بخاصة الوطنية المتعصبة ذات الطابع العدواني أو العسكري أو الاستعماري أو العرقي. واللفظة مصوغة من اسم نيقولاشوفين وهو جندي فرنسي عرف بوطنيته المفرطة وبإعجابه الشديد بنابليون وإخلاصه الأسطوري له) قلت: وما كان أغنانا عن هذه الألفاظ وأمثالها.

أشعر برغبة ملحة لمراجعة النفس، وإعادة صياغة أفكاري.

فالهجمة الغربية علينا، ليست هجمة مجازية أو افتراضية، ولكنها حرب حقيقية معلنة ضد كل ما هو جميل وأصيل في حياتنا.

إن الحضارة الغربية لا تستهدف تعليمنا، أو تحديثنا، أو تنويرنا، كما كنا نتوهم، ولكنها تستهدف محونا وإلغاءنا...

لذلك لابد من تخفيف حماستنا ورومانسيتنا، والتدقيق في كل هذه الأفكار والأزياء والصرعات، والبضائع المغشوشة التي يرميها الغرب علينا بالباراشوت، فتنفجر بين أيدينا.. أو بين أيدي أطفالنا.. كالألغام القاتلة)[1].

ليس هذا الكلام كلام داعية من دعاة الإسلام متحمس،

(١) جريدة الحياة عدد ١١ ديسمبر ١٩٩٣م.

ولا كلام رجل مشتغل بكتب المتقدمين ينفر من كل ما هو جديد ، ولكنه كلام رجل آخر بعيد عن هذا وذاك ، غير أن الحقيقة واجهته فلم يجد بداً من الاعتراف بها .

إننا حقاً نواجه حرباً شرسة تستهدف محونا ومحو ديننا وأخلاقنا .

وإفساد المبتعثين وسيلة من وسائل هذه الحرب ، وهناك وسائل أخرى قائمة على الفتنة والخداع والتغرير والإغراء والترغيب بالمناصب والثروة .

وإلى جانب هذه الوسائل وسائل أخرى من نوع آخر قائمة على المحاربة في لقمة العيش والقمع والسجن والإرهاب والترويع والتشريد والقتل والسحل ، وفوق هذا وذاك قام نفر من بني جلدتنا يتكلمون بلساننا ممن أضلهم الله على علم يدعوننا إلى النار والدمار والخزي والعار

بعناوين ولافتات مزورة .

وقد كان الغرب يسلك معنا مسلك الحيلة والخداع ، ولكنه الآن وقد أحسّ بالخطر أصبح يعلن كيده وحقده وعزمه على خنق كل دعوة للإسلام مهما كان الثمن باهظاً.

﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۖ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

كتب مصطفى أمين يقول :

(ظهر في روسيا هتلر جديد ، يهدد ويتوعّد، ويطالب بضرب بعض البلاد بالقنبلة الذرية ، ويعلن الحرب على الإسلام والمسلمين ... يقول : إن روسيا تستطيع أن تلعب دوراً تاريخياً بإنقاذ العالم من انتشار الإسلام والإرهاب الدولي . فهو يقرر أنَّ الإسلام خطر على العالم كالإرهاب الدولي تماماً .. ويمضي فالديمر زينوفسكي (أو هتلر

الجديد) في شرح مبادئه فيقول بالحرف الواحد :

يجب أن نفكر في إنقاذ الجنس الأبيض ، لأن الجنس الأبيض الآن هو أقلية في العالم يجب حمايتها وإنقاذها . وإذا لم نحارب هذا الخطر « خطر الإسلام » والخطر الأصفر فسوف نواجه خطراً دينياً ثم حرباً دينية ، وسنمحى من الوجود ...

هذا الكلام هو كلام الرجل الذي أعطاه الشعب الروسي في الانتخابات أصواتاً أكثر من أصوات أي حزب آخر ..)[1].

هذا مكرهم ولكن الله يقول : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾[الصف٨]

ويقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ

(١) جريدة الشرق الأوسط عدد ٢٥/ ١٢/ ١٩٩٣(١٢/ ٧/ ١٤١٤هـ)

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة التوبة]

وإلى جانب هذه الصفحة القاتمة المؤلمة صفحة مشرقة مبشرة تلوح من خلالها بوارق الأمل بيقظة شاملة ووعي عميق .

إنَّ نظرة واقعية إلى الابتعاث تجعلنا ملزمين بمراجعة أنفسنا في هذا الموضوع الهام الخطير .

إلى متى نظلُّ نبعث أبناءنا إلى بلاد الكفار ؟ لابُدَّ من وضع خطة تمكننا من الاستغناء عن هذا التصرف ، الذي يفسد أولادنا ويرهق خزانتنا وجيوب أولياء الطلاب .

لقد مضى على أمتنا قريب من قرنين من الزمان وهي ترسل أولادها إلى أعدائها ليصنعوهم وفق أغراضهم، أفلا

يحق لنا أن نتساءل إلى متى سيستمر هذا الوضع ؟

ويمكن أن نعرض هذه النظرة الواقعية بالأسئلة الآتية:

١ ـ كم نسبة الذين ينجحون في دراستهم في هاتيك البلاد ولا يسقطون في حمأة الرذيلة والإخفاق ؟

إن النسبة قليلة جداً كما ذكر لي أكثر من مبتعث .

٢ ـ كم نسبة الذين نجحوا في دراستهم واستطاعوا أن يحافظوا على عقيدتهم وعبادتهم وقيم أمتهم ومثلها ؟

٣ ـ كم نسبة المخربين الهدامين المفسدين من هؤلاء المبتعثين عندما يعودون إلى بلادهم ؟وكم نسبة البناة المصلحين منهم ؟

إنَّ الإجابة على هذه الأسئلة تبرز الحقيقة المؤلمة التي لابُدَّ من مواجهتها .

هناك حقيقة مؤلمة لابُدَّ من تقريرها وهي أنني وأمثالي

ممن درس ودرّس في المستوى الجامعي أدركنا أنه من النادر أن ينجو إنسان ممن درس في ديار الغرب من آثار الابتعاث التي سنشير إليها ، وإن كانت هذه الآثار تتفاوت من رجل إلى آخر .

ومازلت أذكر مدرساً كان درّسنا في المرحلة الثانوية كان يقول : إن كلاب سويسرا خير وأفضل من الناس في بلادنا..

وكان يقول : ماذا في تاريخنا ؟ إنه مليء بالمخازي وسفك الدماء ، وهل هناك إلاّ بعض الأقاصيص عن عمر بن الخطاب ؟

وهناك أمر في غاية الأهمية وهو أن الدراسة في ديار الكفّار تفرض على الأمة أحياناً نوعيات ليست موهوبة ولا متمكنة في تخصصها .

إن كثيراً من الطلاب الضعفاء في الثقافة والأهلية لا يقبلون في جامعات بلادهم ، فيذهبون إلى بلاد الكفار ولاسيما البلاد التي كانت شيوعية ، ويعودون بشهادات عالية ، تفرضهم على الأمة فرضاً ، وتُسند إليهم مناصب ومسؤوليات ليسوا أهلاً لها . ويؤسفني أن أقول: إن هناك بعض بلدان العالم الثالث تصنع مع الدارسين فيها مثل هذا الصنيع .

أعرف شاباً محدود الإمكانيات على درجة من الغباء وبلادة الذهن لم يستطع أن يدخل كلية الطب في بلده لأنه لم ينل في الشهادة الثانوية الدرجة التي تخوله ذلك .. بل كانت درجته متدنية جداً . فذهب إلى بلد يقبل الطلاب الضعفاء ، ثم انتقل الى بلد آخر وأمضى في دراسته دهراً طويلاً .. ثم عاد طبيباً جراحاً .. ولنتصور شناعة هذا الوضع !!

وقد قامت مؤسسات في بعض بلاد الغرب تمنح شهادات مقابل مبلغ من المال وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط في عددها الذي صدر في ٢٨/ ١١/ ١٩٨٢م (١٣ صفر ١٤٠٣) تحقيقاً بعنوان:

[الشرق الأوسط تكشف فضيحة « معامل الدرجات العلمية » ادفع ١٥٠ جنيهاً استرلينياً فقط تصبح من حملة الشهادات الجامعية].

وقالت الجريدة :

[تمكنت الشرق الأوسط من اقتحام أحد « معامل المؤهلات العلمية » في بريطانيا واشترت مراسلتها شهادة دبلوم بمائة وخمسين جنيهاً وبذلك وفّرت على نفسها عناء الدرس ثلاث سنوات ، وقبلها اشترى كثيرون مثل هذه الشهادات لاستخدامها في العمل بمختلف الدول العربية . واستطاعت الشرق الأوسط النفاذ إلى أحد هذه «المعامل»

التي تبيع مؤهلات علمية، بينها شهادة في الطب يمكن الحصول عليها مقابل ٣٥ جُنيهاً استرلينياً لمن يرغب في أن يصبح طبيباً بين ليلة وضحاها] وذكرت أن هذه الشهادة منحتها (جامعة شمال غرب لندن) وقد صورت الجريدة الشهادة المزورة كما يأتي :

www.alukah.net
شبكة الألوكة

North West London University

Register of Science & Arts

London England

NORTH WEST LONDON UNIVERSITY

Register of Advisory Consultants

Schools & Colleges

This is to Certify

I. Cymberbatch

Bachelor of Arts - English Literature

Has been accepted as a Member of this Register

Together with all the rights and Privileges

pertaining thereto

In testimony whereof we have issued this diploma duly signed and sealed by the Hand of the President & affixed by the seal of this society this 0th day of Sept Nineteen Hundred 81

Membership

No 82272

Secretary

College Point 3, Minister Road

Kilburn, London, N.W.2

President

Registrar

COMMISSIONER

Advocate

صورة عن الشهادة التي حصلت عليها مندوبة «الشرق الاوسط» مقابل ١٥٠ جنيها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إننا مهددون بالفناء والدمار ..

ولابدَّ لنا ـ إن أردنا حياة كريمة ورضى ربنا ـ لابدَّ لنا من أن نعي هذا الواقع ونتخذ خطوات عملية تحول بيننا وبين ذاك المصير الرهيب الذي يخطط أعداؤنا للوصول إليه .

إن إفساد عقولنا وتشكيكنا بعقيدتنا وقيمنا ، وإفساد أخلاقنا .. إنَّ ذلك كله من المقاصد التي يرمي إليها الغرب الذي بدأ يكشر عن أنيابه ، ويصرح بعداوته . .

إن الحرب الصليبية مستمرة ، ولم تتوقف لحظة ، وقد خدع (غورو) نفسه وأمته والمسلمين عندما قال كلمته الحقودة أمام قبر صلاح الدين في دمشق: ياصلاح الدين. نحن هنا . الآن انتهت الحروب الصليبية .

كَذَبَ والله ... إنها لم تنته .. إنها مستمرة على أكثر من صعيد .. مستمرة على صعيد الاستعمار الفكري الثقافي ،

ومستمرة على صعيد الاستعمار العسكري المادي ، ومستمرة على صعيد الاستعمار الاقتصادي والاجتماعي .

وقد أحسن الأستاذ أحمد حسن الزيات عندما قال :

(إن الشرق الإسلامي كله منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة ، فانقطع عن صدر الزمن لم يرد أن يبصر بعينيه، ولا أن يسير على قدميه ، ولا أن يعلم أنَّ له تاريخاً ممتازاً ، ووجوداً مستقلاً ، وطابعاً خاصاً ، ووحدة كاملة ، ومدنية أصيلة ، وإنما ذهب يتحسس من طريقه على نداء الصائد ، ويتوكأ في سيره على عمود الشَّرك ، ويطمس على شخصه بالفناء في الغرب ، كأن أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيداً لأوربا بالجسم عن قوة وقهر ، فرضوا أن يكونوا عبيداً لها بالروح عن رضىً وطواعية .

فهم يتأدبون بأدبها ، ويتسمون بسمتها ، ويتخلقون بخلقها ، ويطبعون أذواقهم بالكره على غرار ذوقها ،

ويغالطون طباعهم في أصل الفطرة فيزعمون لعقولهم أنَّ النفس المتمدنة لا يلائمها إلا ما يلائم الأوربي من أدبه ورقصه وغنائه وموسيقاه، كأن المسافة بين الشرق والغرب لا تحدث فرقاً، ولا تغير خلقاً، ولا تبدل طبيعة.

إنَّ الاستعباد الماديَّ دهمنا أمس على يد الآباء، وإن الاستعباد الأدبي يدهمنا اليوم على يد الأبناء.

وشتَّان بين استعباد كان عن اضطرار وجهل، واستعباد يكون عن اختيار وعلم.

والعبودية العقلية أشدُّ خطراً، وأسوأ أثراً من العبودية الجسمية، لأن هذه لاتتعدى الأجسام والحطام والعرض، ومثلها مثل الجسم يرجى شفاؤه متى عرف داؤه، أما تلك فحكمها حكم العقل إذا ذهب، والروح إذا زهق، وهيهات أن يرجى لمخبول شفاء، أو ينتظر لمقتول رجعة)[1].

(١) وحي الرسالة ١/ ١٨٤ من مقالة بعنوان « الثقافة المذبذبة ».

أجـل .. هناك نفـر مـن أبنـاء المسلمين ابتعثوا إلى ديـار الغرب ، فتلقوا هناك العلوم وغير العلـوم ، أو تثقفوا بثقافته وهـم مقيمون ، أصبحـوا عملاء للكـافر المستعمـر .. إنهم يعلنون شعارات خداعة ، كالحرية والعدالة ونشر الثقافة .. ونحو ذلـك .. وهم في حقيقة الأمـر أعداء لأمتهم يقـومون بمهمات العدو المستعمر الكافر .

إن إرسال الشباب الأغـرار الذين يلتهبون غـريزةً وليس لديهم رصيد كـاف من التربية والحصانـة والنضج الفكري قتلٌ لهم ثم قتـلٌ للأمة التي سيـديرون شؤونها عندمـا يعود من يعود منهم .

إنَّ الله أراد لهذه الأمة أن تتميز عن الأمم الأخرى .. ولقد كـانـت كذلـك حقـاً ، كـانـت تتميـز بالعقيـدة والعبـادة والتوقيـت والتاريخ وطـراز المسكن واللبـاس وغير ذلك .. ولكنها ـ وا أسفاه ـ في تخلٍّ مستمـر عن هذا التميّز .. وليس

من شك في أن الابتعاث سبب من أسباب هذا التخلي الذي يقود إلى الاندماج والذوبان في حياة الغرب .

ويؤسفنا أن نقرر أن هذا الابتعاث في تزايد مستمر فالأرقام التي تنشر عن عدد المبتعثين أرقام مذهلة .

جاء في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٥/ ٣/ ١٩٨٠م ما يأتي :

(تشير بعض التقديرات إلى أن في الجامعات البريطانية الآن ما يزيد على خمسة وثلاثين ألف طالب جامعي عربي).

قلت : إذا كان هذا عددهم في بريطانيا فكم يبلغ عددهم في أمريكا وأوربا وروسيا والكتلة الشرقية ؟

وإذا كان هذا عدد العرب فكم يكون عدد الطلاب المسلمين من غير العرب في هذه البلاد المذكورة .

وإذا كان هذا عددهم في سنة ١٩٨٠ فكم يكون

عددهم في سنة ١٩٩٤م.

وَبَعْـد:

فـإني لأرجـو أن ينفـع الله بهذه الطبعـة المزيـدة كما نفـع بأصلها وأن يجعلنا وإخواننـا المسلمين ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ومن الذين يقومون بما أوجب الله عليهم من التبليغ والنصح.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

محمد بن لطفي الصَّبَّاغ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الابتعاث ومخاطره *

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ لـه ، ومن يضلـل فلا هـادي لـه ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله .

أما بعـد :

فقد آثرت أن أبحث في موضـوع الابتعاث لما أرى له من الأهمية العظمى والخطـورة البالغة ، ذلك أنَّ مستقبـل بلاد العالم الإسلامي ـ يتوقَّـف إلى حدٍّ بعيد ـ على هذه البعثات التي سيكون مـن أفرادها رجال المستقبل ، وحكـام هاتيك البلاد ، والقيادات الفكرية فيها .

* بحث كتب للمؤتمر العـالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الـدعاة الذي عقد في المدينة المنورة في ٢٤/ ٢/ ١٣٩٧ هـ الموافق ١٢/ ٢/ ١٩٧٧م .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وإنّني أشكر للقائمين على هذا المؤتمر إدراجهم هذا الموضوع في جملة الموضوعات التي يعالجها المؤتمر ، فذلك يدلُّ على تنبُّهٍ لخطر هذه الظاهرة التي لا يستطيع الدعاة تجاهلها ، لأنَّ ما يبنيه الداعية في مجال ، يهدمه المنحرفون من المبتعثين، لاسيَّما إن كانت في أيديهم السلطة والصلاحيات.

حوادث صارخة تستلفت النظر :

سمعتُ مرَّةً من أحد رجالات اليمن أنَّ آلافاً من الشباب من أبناء هذا البلد المسلم الشقيق المؤمن ، أُرسلوا إلى الدول الشيوعية ، ليدرسوا هناك جوانب مختلفة من المعرفة والاختصاصات .

وعلمتُ في الصيف المنصرم ، خلال رحلتي إلى أوربا ، أنّ الصومال ترسل الألوف من أبنائها أيضاً ، إلى الدول الشيوعية والاشتراكية ليدرسوا هناك العلوم والمعارف .

وحدث أنني منذ عشر سنوات اجتمعت في الطائرة بشاب من بلد عربيّ يتوقد ذكاءً ، قصَّ عليَّ قصَّة دراسته، وخلاصتها :

أنَّه كان الأول في امتحان الشهادة الثانوية ، فاتصلت دولة من الدول الاشتراكية بوزارة التربية في ذلك البلد ، وعرضت عليها الرغبة في أن تعطي هذا الطالب الذكيَّ ، منحة دراسية في أي فرع نادر من فروع التخصص يرغب فيه، وذهب إلى الدراسة ، ولكنه ـ كما بدا من حديثه ـ لم يتلق العلم فقط هناك وإنَّما تلقى الفكر الشيوعي الماركسي وأصبح من المؤمنين به المدافعين عنه [1].

قال الدكتور تركي رابح عمامرة :

[وإذا ما علمنا بأنَّ عدد الطلبة الذين يدرسون في

(١) نشرت في ذلك مقالة في مجلة « الشهاب » اللبنانية .

جـامعات أوربـا وأمريكـا يبلغ حـوالي ١٠٠ ألـف طالـب وطـالبة حسب إحصائيـات سنة ١٩٧٥م وأنَّ أعداداً كبيرة من هؤلاء لا يعودون إلى أوطانهم بعـد نهاية دراستهم حيث قدرت بعض الدراسات أنه من بين ١٠٠ مبعوث عربي يدرس في الخارج تبقى نسبة كبيرة.

وبالتحديد كما يقول الدكتور هشام خواجكية :

مالا يقل عن ٩٠٪ من الطلاب اللبنانيين

و ٦٠٪ من الطلاب العراقيين

و ٣٥٪ من الطلاب المصريين

و ٧٥٪ من الطلاب السوريين] (١)

ونشرت جريدة الشرق الأوسط ما يأتي :

[شهدت السنوات الماضية تصـاعداً خطيراً في معدلات

---

(١) جريدة الشرق الأوسط تاريخ ٣/ ٩/ ١٩٩٠م.

هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب الصناعي، مما ساهم في تعميق الخلل في البنية التعليمية والتخطيطية وتكليف الاقتصاديات العربية خسائر غير منظورة، تقدر بعشرات المليارات من الدولارات.

وأظهرت دراسة أعدها الدكتور معين القدومي رئيس «جمعية التنمية العربية» (في عمان) عن هجرة الأدمغة العربية أنَّ عدد المشتغلين بالبحث العلمي يقدر بـ ٢٠٧ أفراد لكل مليون نسمة في الوطن العربي في حين أن هذا العدد وصل الى ٥١٧٢ لكل مليون في الاتحاد السوفيتي....

.... وقدّرت الدراسة عدد الأدمغة العربية في الولايات المتحدة بنحو أربعمائة ألف نسمة، وفي أوربا بنحو مائة ألف نسمة، وأن خسائر الأمة العربية على صعيد هجرة الأدمغة تبلغ حوالي مائتين مليار دولار، وأكدت الدراسة أن مشكلة هجرة الأدمغة شديدة الخطورة، ولها انعكاساتها

على التنمية العربية وعلى التطور الحضاري ، وأنّ المنطقة العربية تُعدّ من أكثر المناطق في العالم معاناة لهجرة العقول العلمية ، مشيرة إلى أن مصر قد فقدت ٣٥٠ ألف خريج ، أغلبهم من حملة الماجستير والدكتوراة ، وبيّنت الدراسة الأسباب الدافعة أو الطاردة للأدمغة العربية سواء كانت عملية دفع من الدول العربية أو عملية جذب من الدول الصناعية الغربية وبخاصة في الولايات المتحدة وكندا وفرنسا ، وهي الأسباب الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والحضارية والثقافية، والتعسف الإداري والبيروقراطي، وانعدام الحرية الاكاديمية وتخلف البحث العلمي ، والعوامل السلوكية والتجزئة ...

واعتبرت الدراسة الأسباب الاقتصادية في مقدمة الأسباب لخروج وهروب الأدمغة .....

..... وكشفت الدراسة أنَّ تقريراً وضعته السلطات

الأمريكية المختصة نوقش أمام الكونجرس بسرية تامة عام ١٩٧٤عن الطريقة المثلى لاستقطاب الأدمغة العربية.

كما بيّنت الدراسة العوامل الجاذبة للأدمغة العربية والتي تتمثل في :

التقدم الاقتصادي ، والاستقرار السياسي ، في المجتمعات الغربية وتوفر الفرص العادلة والمتكافئة للبحث العلمي والعمل المنتج ، ووجود المجالات المتعددة لتحقيق الذات والاستقرار النفسي والتشريعات والقوانين المشجعة للهجرة ، وقيام مؤسسات دولية بتشجيع هجرة الأدمغة ، والرواتب المغرية ، والزواج من أجنبيات .

وأوضحت الدراسة مشكلة العائدين من الأدمغة إلى الدول العربية بأنَّها تتمثل في :

عدم تقدير التخصص والخبرة العلمية ، لعدم وجود معايير علمية لوضع الإنسان المناسب في المكان المناسب .

وعدم إمكانية التكيف في بيئة تقوم على الفوضى في عدم احترام النظام وعدم تقدير الوقت والكفاءة العلمية.

ووجود مضايقات ... في وجه العائدين لخدمة أوطانهم والضغط الفكري والنفسي واغتيال الحرية الأكاديمية، ومأساة كبت حقوق الإنسان، وانعدام الاستقرار .

وسياسة المساومات في الرواتب والأجور ونوعية العمل طبقاً للنفوذ السياسي أو الحزبي أو العشائري، دون الاعتبار لاحتياجات المجتمع ومشكلة احتكار المناصب والوظائف المهمة والسلطة بأيد معينة ... ومراقبة العلماء أكثر من مراقبة الجواسيس ...][1].

مكر مدبر :

ليست عداوة الكافرين للمسلمين خافية على ذي

(١) جريدة الشرق الأوسط ص ٢٩ تاريخ ١ جمادى الآخرة ١٤١٢هـ (٧/ ١٢/ ١٩٩١م)

بصيرة ؛ فهم لا يألوننا خبالا ، وما أصدق وصف القرآن الكريم لهم ، وذلك في قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۖ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

(١) سورة آل عمران ١١٨/ ١٢٠ .

فهم منذ أن جاء محمد ﷺ، بهذه الرسالة وهم في مكر مستمر، وقد صفا لهم الجوُّ عندما ضعفنا وأصبحوا أقوياء، وخيّم علينا الجهل وتقدَّموا هم في مجال العلوم المادية، واستطاعوا احتلال بلادنا، فزيَّن لهم ذلك المضيَّ في عدوانهم علينا، والإمعان في الاستيلاء على بلادنا وثرواتنا، ولكنهم رأوا أن جذور الإسلام عميقة في كيان المسلم مهما كان هذا الفرد المسلم مقصراً. ووجدوا أنَّ روح الإسلام ومعانيه ومثله العليا مستولية أشدَّ الاستيلاء على مشاعر الناس وتصوراتهم...

فواجهوا هذا الواقع بالمكر والتدبير، وخططوا لإزالة هذه العقبة من طريقهم ... وهي هذا الإسلام الذي لن يمكنهم من تحقيق أغراضهم وأطماعهم، ما دام حياً في نفوس المسلمين وسلوكهم.

فمن ذلك كلمة غلادستون أحد زعماء بريطانيا : «ما دام هذا القرآن في أيدي المسلمين فلن يقرَّ للاستعمار قرار في ديار الإسلام» وأمثال هذه الكلمة كثير .

وفكروا وقدروا ، ثم فكروا وقدروا ، ودرسوا كيف يمكنهم أن يزحزحوا الإسلام عن مكانته في صدور المسلمين ؟ وكيف يقتلعون هاتيك الجذور بهدوء ويسر ونجاح ؟ وقادهم تفكيرهم وتقديرهم إلى وسائل عدّة ... استخدموها بإتقان وإحكام .

وكان من ذلك الابتعاث ، والتبشير ، ونشر التحلل والإفساد الخلقي ، والحملات العسكرية المسلحة ، والتشكيك، والإلحاد ، ومحاربة اللغة العربية ، وبعث القوميات العنصرية ، والنزعات الوطنية الضيقة لتحل محلّ الدين ، وإفساد مناهج التعليم ، ووسائل الإعلام .

ونحن في بحثنا هذا ، نودُّ أن ننظر في موضوع الابتعاث،

لنبيّن كيف أنه كان من أفتك الأسلحة لزلزلة الإسلام من القلوب، ومحاولة اقتلاع جذوره العميقة من أعماق نفوس المسلمين، وبين أيدينا حقائق يجب أن لا تغيب عن أذهاننا؛ من أهمها أنهم أعداء ألداء، فلا يمكن أن يكون منهم حرصٌ على أن نتعلم ونتقوى، وأنهم أنانيُّون ماديون فلا يمكن أن يكون عندهم مثل هذا الإيثار والتضحية من أجلنا، وقد حرصوا على سلوك كل سبيل لإخفاء هذه الأنانية وذاك المكر، ولكنهم - على الرغم من جهودهم في كتمان ذلك - غلبوا على أمرهم؛ لأنه أقوى من أن يستر، وظهر ذلك في مواقف عديدة، ولو أنهم دروا أنّ تعليمنا لا يقودنا إلى أفخاخهم، لما رضوا أن يعلِّمونا حرفاً واحداً، فمثل هذه البعثات دفع إليها، وكان سبباً من أسبابها:

- الرغبة في أن يكون تجانس وتطابق في التفكير بين المستعمرين وأبناء البلاد من المسلمين.

وينشأ عن هذا بالضرورة ضعف سلطان الدين، وزحزحة مكانته عند كثير من هؤلاء المتعلمين من المبعوثين.

وستتضح هذه الأسباب عندما نبين نتائجه وآثاره.

وقد يقول قائل: هل هناك مانع من الارتحال لأخذ النافع من علوم القوم؟

والجواب: لا ... بشروط.

والرحلة في طلب العلم مما درج عليه علماء سلفنا الأفاضل منذ الصدر الأول. امتثالاً لأمر الله عز وجل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1]

قال حماد بن زيد: (فهذا في كلّ من رحل في طلب العلم والفقه، ورجع به إلى من وراءه يعلمهم إياه)[2].

---

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) «شرف أصحاب الحديث» للبغدادي ص ٥٩.

وقال عبدالرزاق : (هم أصحاب الحديث)[1].

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي[2] في كتبهم : أنّ رجلاً قدم من المدينة على أبي الدرداء ـ وهو بدمشق ـ فقال : ما أقدمك يا أخي ؟

قال : حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : أما جئت لحاجة ؟

قال : لا .

قال : أما قدمت لتجارة ؟

---

(١) « شرف أصحاب الحديث » للبغدادي ص ٥٩ .

(٢) «مسند أحمد » ٥/ ١٩٦ و «سنن أبي داود » ٣/ ٤٣٢ و «تحفة الأحوذي» ٣/ ٣٨١ و «سنن ابن ماجه» ١/ ٨١ و « سنن الدارمي» ١/ ٩٨ وانظر «مختصر أبي داود » للمنذري ٥/ ٢٤٣ و «صحيح سنن أبي داود باختصار السند» للألباني برقم ٣٠٩٦ و « ميزان الاعتدال » ٢/ ٥ .

قال : لا .

قال : ما جئت إلا في طلب هذا الحديث ؟

قال : نعم .

قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله له به طريقاً إلى الجنة ، وإنّ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب . وإنَّ العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء . وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب . وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء ، وإنَّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنَّما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[1].

(١) انظر الكتب المذكورة في التعليق السابق و «رسالة شرح حديث أبي الدرداء» لابن رجب صفحة ٣ ط السلفية مكة ١٣٧٤ .

وقال عبدالله بن مسعود : (لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته)[1].

وهكذا فقد بدأت الرحلة في طلب العلم منذ أيام الصحابة رضوان الله عليهم ، فرحل أبو أيوب ، وجابر بن عبدالله إلى مصر [1] ، وكذلك التابعون وتابعوهم حتى عصرنا الحاضر [2].

إذن فنحن قوم نؤيد الرحلة في طلب العلم ونحثُّ عليها، ولعلنا نحن أول الأمم التي جعلت الرحلة في

---

(١) « الكفاية » للبغدادي ص ٥٦٩ .

(٢) انظر في ذلك « الرحلة » للبغدادي و « تدريب الراوي » للسيوطي و «فتح الباري» لابن حجر و «المحدث الفاصل» للرامهرمزي و « العلم » لأبي خيثمة و «جامع بيان العلم» لابن عبدالبر و «معرفة علوم الحديث» لابن الصلاح و«مقدمة ابن خلدون» و«كشف الظنون» لحاجي خليفة. وكتابنا «الحديث النبوي».

ذلك من مقدمات العلم ومقومات التعلم ، ولكننا لا نترك أمر الرحلة سائباً يقوم على الفوضى ويؤدي إلى النتائج السيئة التي تؤدي إليها الفوضى ، بل نشترط فيها ـ كما أشرنا ـ شروطاً :

وأهمُّ هذه الشروط هي :

١ ـ أن نأخذ في رحلتنا ما تحتاج إليه أمتنا .... أن نأخذ العلم التجريبي وتطبيقاته . فالعلم بحقائقه المجردة لا جنسية له ولا لون ، والمخترعات لا تلتزم بدين ولا تعبر عن تصور .

٢ ـ أن نأخذ ما نأخذ ونحن محافظون على ذاتنا وكياننا وأنفسنا ، معتزون بما أكرمنا الله به من الدين ؛ لأنّ مثل هذا الاعتزاز يسهل علينا معرفة ما نأخذ وما ندع ، ومعرفة مصلحتنا وتحديدها ، ولنا الأسوة الحسنة في صنيع أجدادنا ،

عندما اقتبسوا بعض العلوم النافعة التي كانت عند الأقوام الأجنبية الأخرى .

فلقد أقبل أولئك الأجداد في العصر الذهبي للثقافة والتدوين والتبحر العلمي ، أقبلوا على الترجمة والابتكار والإبداع ، فترجموا كثيراً من الكتب وأبدعوا وابتكروا ... وكان لهم أدب راق يحمل الأصالة العربية في البيان ، والوجه الإسلامي إذ جعل وجهته القرآن ، وكان لهم طب يتسم بهذه السمة ، ورياضيات ، وفلسفة ، وجغرافيا، وفيزياء ، وكيمياء ، وكانت هذه العلوم المختلفة مصطبغة بالروح الإسلامية .

٣ ــ أن يكون هناك اختيار لمن يذهب ، فيختار لهذه المهمة من كان صلب الدين ، قويَّ الإرادة ، متقدم السن ، محصناً من التأثر .

٤ ــ أن يحاط المبعوث هناك بالجوّ الإسلامي النظيف

الذي يُذكِّره إنْ غفل ، ويعينه إنْ ذكر .

٥ ـ أن تكون مناهجنا التعليمية تجعل ممَّن يذهب لتلك البلاد ، داعياً مؤثراً غير متأثر .

***

وسيمر بنا تفصيل لهذه الشروط في ثنايا البحث .

ويقتضينا البحث أن نتساءل عن حكم الإقامة في بلاد الكفار ؛ لأنَّ الابتعاث اليوم ـ مع الأسف ـ إنما هو في الأعمِّ الأغلب إلى بلاد الكفار .

***

الإقامة في بلاد الكفار :

قرأتُ بحثاً قيماً كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع ، وقد قال فيما قال رحمه الله :

(الإقامةُ في كل موضع تكون الأسباب فيه أطوع لله

ورسوله ، وأفعل للحسنات والخير ــ بحيث يكون (المسلم) أعلم بذلك وأقدر عليه ، وأنشط لـه ـ أفضلُ من الإقامة في موضع يكون حاله فيه في طاعة الله ورسوله دون ذلك)[1].

وقال كـلاماً مضمونه أنّ الحكـم على الإقامة أمـر نسبي يتعلق بالشخـص والظروف ، فمثلاً قد تكون إقامـة الرجل في أرضٍ يسود بها الضـلال ويستعلن فيها الكفـر ، أفضل إذا كان هذا الـرجل مجاهداً في سبيل الله ، أو داعيـاً إلى دينه القويم بلسـانه وقلمه ، وقد تكـون إقامته هناك أحسـن من إقامته في أرض الإيمان والطاعة.

ومـن هنا كـانت المرابطـة في الثغـور على حدود الكفـار أفضل من المجاورة بالمساجد الثلاثة باتفاق العلماء .

قال تعالى ـ وهـو أصدق القائلين ـ : ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ

---

(١) « مجموع الفتاوى » ج ٢٧ ص ٣٩ .

ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ (١)

إذن فالجهاد مع الإيمان أعظم درجة عند الله، من عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحجاج، وبركةُ البيت الحرام وفضلُ العبادة فيه أمرٌ مسلّمٌ معروف بيِّن لا جدال فيه.

فأفضلية مقام المسلم في دار الكفر مجاهداً في سبيل الله ـ في تصوري ـ عائد إلى أمرين:

---

(١) التوبة: ١٩/ ٢٢.

١ ـ أحوال الشخص ، وإمكانياته ، ومواهبه ، وطاقاته ، وأوضاعه الخاصة به .

٢ ـ الظروف العامة التي تسود بقعة ما من بقاع الدنيا .

فإذا كان إنسان من الناس متَّزن الشخصية قوياً ، مسموع الكلمة موهوباً ، يمتلك أداة من أدوات التأثير في الناس عملية كانت أو فكرية ، كالكتابة والخطابة وإنشاء المدارس وفتح المستشفيات وما إلى ذلك ، مما تقتضيه مصلحة الإسلام في ذلك البلد ، وكان يستطيع أن يؤدي رسالته على وجه حسن ، وكان يحتمل ما يصيبه من الأذى المتوقع ، فلا شك في أن إقامته حيث يقوى على الدعوة ، خير له من الحياة في الوسط الطيب الصالح .

أما إذا كان هذا الإنسان شخصاً عادياً ، يتأثر بالوسط الذي يحيا فيه ، وليس لديه شيء من المواهب والطاقات ، وكان تعرضه للأذى والفتنة أمراً محققاً ؛ فلاشك في أن مثل

هذا يجب عليه أن يختار البيئة الصالحة الفاضلة وأن يقيم فيها ، فذلك أروح قلباً وأسلم عاقبة .

وأود أن أقرر أيضاً :

إن وجود المرء مدة طويلة في مجتمع كافر منحرف ، وتعايشه معه يجعله يتأثر بأعراف هذا المجتمع وقيمه شاء أم أبى ... ولا يمكن أن يشذ عن هذه السنة فردٌ ، وإن كان التأثر يختلف قوة وضعفاً ، سلباً وإيجاباً .... ولكنه موجود على أية حال . ونسبة الذين يسلمون من هذا التأثر نسبة قليلة ، وهذا ما جعل الإقامة في بلاد الكفار ، أمراً مقيتاً لا تستريح النفس إليه ، ومحظوراً إن لم يكن له داعٍ ، ولم تتوافر في المسلم المقيم الشروط التي ذكرناها آنفاً .

ولقد دعت الآية الكريمة أولئك الذين يلتصقون بالأرض، ولا يهاجرون من ديار الكفر ظالمي أنفسهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا

مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾[1]

والله تبارك وتعالى يفتح الآفاق أمام عباده ليختاروا الأرض التي يستطيعون فيها إقامة حكم الله قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]

وقال: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) النساء: ٩٧-٩٩.

(٢) العنكبوت: ٥٦.

مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1] ولكن هل الابتعاث في أوضاعنا القائمة هو من هذا القبيل ؟

لماذا الابتعاث وماذا يدرس المبتعثون ؟

إنَّ الابتعاث إلى الغرب (رأسماليه وشيوعيه)أمرٌ درجنا عليه ، منذ أن بدأ الاحتكاك بأوروبا في مطلع القرن الثالث عشر الهجري (أي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي) كما سنبين ذلك في فصل خاص بتاريخ الابتعاث .

وكان أمراً له مسوغاته دون شك ، فلقد ذهب أنصار الابتعاث إلى القول : بأنه لابدَّ منه ، حتى نستطيع أن نواكب عصرنا ونشارك أهله العيش في قضاياه . وقال هؤلاء الأنصار المتحمسون :

---

(١) النساء : ١٠٠ .

إننا في ذهابنا إلى ديارهم نسترد ديناً سلف منا ، فلقد كنا في يوم مضى أساتذة الدنيا ، عنَّا يتلقى العلم كل راغب فيه، ومنهم أجداد هؤلاء الغربيين ، ومن كُتُبِنَا كانوا يستمدون المعرفة ، حتى أضحت مصادرهم الوحيدة ، وكان مثقفوهم ومفكروهم يتخرجون في جامعاتنا ، قالوا : فنحن نسترد ما سلف منا إليهم ، عندما نتتلمذ على أيديهم ونستمد من كتبهم المعرفة ، وهكذا الأيام يوم لك ويوم عليك ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

وإن صحَّ كثيرٌ مما قاله هؤلاء الأنصار ، فإن هناك شيئاً لابدَّ من إضافته إلى كلامهم وهو :

إنَّ الرحلة في طلب العلم وسيلة ، ولكنها ليست الوسيلة الوحيدة ، لاسيما بعد أن مضى على اتصالنا بحضارتهم وعلومهم الزمن الطويل . وحتى لو تعينت الرحلة وسيلة وحيدة ، فقد كان يمكن أن تنضبط ويقضى على

محذوراتها.

وسيتضح لنا من دراسة تاريخ الابتعاث وواقع المبتعثين هناك، مدى التفريط والمجازفة بنفر من أبنائنا، وستنكشف بعض الأسرار المهمة في هذا الموضوع.

ونودُّ أن نفرق بين نوعين من المعارف والعلوم:

أما أولهما فلابُدَّ من أخذه وإتقانه بالرحلة أو غيرها، وكلّما تفادينا الرحلة ضمنّا واقعاً أفضل، خلافاً لما يدَّعيه الذين يتحمسون للابتعاث؛ وهذا النوع من المعارف هو ما يتصل بالعلوم البحتة والتطبيقية: كالرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، والهندسة، والطب، وما إلى ذلك. إنها علوم تصلنا بأسباب الحضارة والتقدم، بل إنّ الإسلام ليجعل تحصيل هذا النوع وإجادته، فرض كفاية على المسلمين، إن لم يقوموا به أثموا[1].

(١) انظر «روضة الطالبين» ١٠/ ٢١٧ ـ ٢٢٦ قال النووي فيه =

ولو نظرنا في واقعنا الحاضر لوجدنا أنَّ من أسباب ضراوة الغزو الفكري وشراسته علينا، ما قوبلت به حضارة أوربا في بادئ الأمر من سلبية من قبل أكثر أهل العلم والتوجيه في ديار المسلمين، ذلك لأنه إن لم يكن الاقتباس من هذه الحضارة يتم عن إرادة واختيار وبصيرة فإنَّ هذه الحضارة تزحف علينا وعلى معتقداتنا وأخلاقنا لتزلزلها وتغتالها ... أجل إنها تزحف بقضها وقضيضها، وخيرها وشرِّها، وصالحها وفاسدها. ومثلنا عندئذ مثل قوم جياع أمامهم مائدة حافلة بصحاف مختلفة من الطعام، بعضها فيه السم القاتل، وبعضها طيب جيد، وبعضها حلو، وبعضها حامض... وقد زينت أتم زينة، ورتبت أفضل ترتيب.

فإن اختار العارفون الطيب النافع لهؤلاء الجياع المحتاجين، تجنبوا السُّمَّ والأذى واستجابوا شاكرين.

=ص ٢٢٥: إذا تعطل فرض كفاية أثم كل من علم به وقدر على القيام به. وكذا من لم يعلم وكان قريباً من الموضع يليق به البحث والمراقبة.

وإلا فإن هؤلاء الجياع لا يستطيعون أن يصبروا على الجوع طويلاً لمجرد التحذير والخطر، وسيقبلون على هاتيك المائدة المحظورة ثائرين متمردين، يأكلون طعامها النافع والضار.

إذن العلوم التجريبية والتطبيقية هي النوع الذي لابُدَّ من أخذه، مع الحذر من الفلسفة التي ترتبط بها هذه العلوم وتقوم على أساسها.

وأما النوع الثاني من المعارف والعلوم فهو قسمان:

١ ـ قسم يتضمن العلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية وآدابها والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والقانون والفلسفة وكل ما يدخل تحت عنوان (العلوم الإنسانية)، فليس هناك فائدة ترجى من أخذه عن الغرب، والضرر ظاهر في الابتعاث من أجله، ولا يمكن لأمة تملك الغيرة على ذاتها وكيانها ومثلها العليا، أن ترضى بمثل هذا الوضع الزري.

أليس أمراً مخجلاً أن يذهب رجل من المسلمين إلى اليهود والنصارى ، فيتعلَّم منهم أمور دينه ، أو يذهب إلى الأعاجم فيتعلم منهم لغته !!؟؟

وما ثقتنا بعلم رجل تلقى علومه الشرعية على اليهود والنصارى الموتورين الحاقدين على دين الإسلام وأهله؟

وما تقديرنا لمن يتخرج في اللغة والأدب على أيدي الأعاجم المستشرقين الذين لا يبينون ولا يتذوقون ؟[1].

إن دراسة هذه العلوم يجب أن تمنع في ديار الكفار ، ويجب أن تتم في بلاد المسلمين ، وهذا أمر واضح .

---

(١) قال المستشرق الكبير نالينو : (إننا ـ المستشرقين الباحثين في أوربا عن لغات أهل الشرق واعتقاداتهم وعوائدهم وآدابهم وتاريخهم وجغرافية بلادهم وهلم جراً ـ أكثرنا ما تعلمنا تلك اللغات إلا بمطالعة الكتب دون أن يمكننا الاستفادة من محادثة الوطنيين ...

... فبالجملة صار مثلنا كمثل الصمّ والبكم ، وأصبحنا في كنوز العربية مترددين في بحورها متحيرين مع صرف همتنا إليها ومثابرتنا عليها) «علم الفلك » تأليف نالينو صفحة ٣ .

يكفي هذا الطالب الذي يدرس (العلوم الإنسانية) في بلاده يكفيه ما قد يتعرض له من ضغط نفرٍ من هؤلاء الأساتذة الوطنيين المتأثرين بحضارة الغرب الذين يتلقى هذه العلوم على أيديهم ، ولا ينبغي أن نزيد عليه الضغط بأن نضعه في بيئة فاسدة كل ما فيها يدعوه إلى الانسلاخ من دينه وخلقه وقيمه وفكره سواء في ذلك ما يسمعه من أساتذته وزملائه .. وما يراه في الشارع والوسط الجامعي المتفسخ ، وما يقرأه ويسمعه ويشاهده في وسائل الإعلام من إذاعة وتلفاز وصحافة وسينما .

بينما لو كان هذا الطالب يدرس في بلد من بلاد المسلمين لأتاح له ذلك أن يسمع رأياً آخر ، وهو عندئذ سيوازن بين الرأيين .. وتفسح له فرصة ليفرق بين الحق والباطل ، كما أن الجو العام في بلده لا يعرض الشاب العادي إلى الانحراف ، ولا يمكِّن المنحرف من أن يغلو في انحرافه .

إننا إن لم نحسَّ بخطورة هذا الأمر نكن قد أجرمنا بحق هؤلاء الناشئة من الشباب والشابات .

٢ ـ وقسم يتضمن دراسة الفنون من رقص، ومسرح، وسينما ، ونحت وموسيقى ... وما إلى ذلك : فدراسة هذه الأمور وأمثالها محظور في أي مكان في بلادنا أو في بلاد أعدائنا ، ودراستها هناك أشد حظراً .

هذه الفنون ، أي الرقص والمسرح والسينما والنحت والموسيقى ، فنون محظورة ، وهي في وضعها الحالي قائمة على الرذيلة والمجاهرة بها ، وواقع المشتغلين بها أكبر حجة على ذلك ، ومن أراد الوقوف على حقيقة هذا الوسط الفني فلينظر في كتاب « اعتماد خورشيد شاهدة على انحرافات صلاح نصر »[1] .

(١) وهو كتاب خسيس ولكنه يقدم الدليل على سقوط الوسط الفني ، ومؤلفته وهي من هذا الوسط تعترف بحياة السقوط التي عاشتها وقد ذكرت وقائع مذهلة . ويقع الكتاب في ٣٢٠ صفحة ولغته ركيكة وكثير من صفحاته بالعامية المصرية طبع أربع طبعات كلها في ١٩٨٨م في مطابع الأهرام بمصر ونشرته مؤسسة أمون الحديثة للطبع والنشر .

وليس معنى هذا أنَّ الإسلام يحارب الفن من حيث هو فنّ .. لا .. ليس هذا مقصوداً .. هناك فنون جميلة يمكن أن تبرز فيها موهبة الفنان كالخط ورسم المناظر الطبيعية والقصة والقصيدة وكتابة المسرحية والمقالة والأناشيد الوطنية والدينية والترويحية والفكاهية .. ونحو ذلك .

إنَّ الفن إذا كان قائماً على الفضيلة ومنسجماً مع عقيدة الأمة ودينها لم يكن هناك مانع منه .. بل ربما كان أمراً مرغوباً فيه إذا أدّى مهمة التنبيه لواجب ، أو التحذير من خصلة ذميمة . وهناك مشكلة لابد من إثارتها وهي مشكلة التمثيل المسرحي والتلفزيوني والإذاعي .

فهذا التمثيل مؤثر وممتع وجذاب ، ولكن كيف يمكن أن نوظف هذا الفن لخدمة الحق والدين والخلق. أظن أن بالإمكان إيجاد مسرح فكاهي ليس فيه مخالفات إسلامية ، وإيجاد مسرح جاد يبث في مشاهديه الحماسة والحمية

والمروءة والنجدة والرغبة في الخير والانطلاق في الدعوة إلى الله .ولست أزعم أني قادر على تقديم مشروع كامل في هذا الصدد في هذا البحث . ويكفيني الآن أن أذكر بأهمية هذا الموضوع وتأثير هذه المشكلة .

إن كشف النساء لعوراتهن وإبرازهن لمحاسنهنّ ومفاتنهنّ والنوم مع الرجال في فراش واحد والقيام بحركات مثيرة ، والقبلات والمعانقات أمور لاتخلو تمثيلية منها .

فهل هذا أمر مقبول ؟ وهل هذا فن تحتاج إليه الأمة ؟

إن هذا الفن الرخيص الساقط عندما نمنعه لا تخسر الأمة بذلك شيئاً .

وبعد هذا الاستطراد الضروري نعود إلى ما يتعلق بالابتعاث وما يدرس وما لا يدرس فنقول :

ويمكن أن يلحق بما ذكرنا كل دراسة تنتهي بالدارس إلى الشك والزيغ .

ومما يدُّل على انحراف الابتعاث وارتباطه بغايات هدامة، أنَّ معظم الابتعاث ، إنما كان في العلوم النظرية والآداب واللغات وما إلى ذلك ، ولم يكن هناك عددٌ كاف من المبتعثين لدراسة العلوم التجريبية .

ويذكر الدكتور محمد محمد حسين أمر البعثات فيقول :

(وأصبح أكثرها يُوجّهُ توجيهاً أدبياً أو فلسفياً تربوياً بعد أن صارت المجالات الصناعية والخبرات الفنية وقفاً على المستعمرين الأوربيين الذين حولوا المستعمرات وأهلها إلى مزارع ومناجم وعمال لإنتاج المواد الأولية) [1].

والذي كانت تتطلبه بلاد المسلمين هو العكس من

(١) « الإسلام والحضارة الغربية » ص ٥٦ .

ذلك؛ فتأخر المسلمين إنما نشأ عن أمور من أهمها إهمالهم للعلوم التجريبية والتطبيقية، وبعدهم عن مجالات الإنتاج والتصنيع الاقتصادي والعسكري.

والابتعاث لدراسة العلوم الدينية واللغوية يتصل لدى التأمل بعمل المستشرقين. فما هو هذا العمل؟

المستشرقون والدراسات الدينية واللغوية:

إن أية دراسة دينية أو لغوية في ديار الغرب، ترتبط ارتباطاً حتمياً بالمستشرقين، وموضوع الاستشراق جدير بأن يبحث بشكل موضوعي وفي بحث مفرد، وأن يدرس ما له وما عليه، ولكنني ـ هنا ـ أحب أن أقول: إنّ الذي لا ينقضي منه عجبي أن يبقى هذا الموضوع الخطير وهو من أكثر الأمور تأثيراً في تفكيرنا وثقافتنا في العصر الحاضر أن يبقى حتى الآن دون دراسة وافية من وجهة النظر

الإسلامية؛ ذلك لأن الدراسات التي ظهرت فيه دون المطلوب بمراحل.

والذي نريد أن نشير إليه هنا أن المستشرقين بلغوا من المكر والدس والحقد منزلة يعسر تصورها، والخطورة فيها أنهم غير مكشوفين، وأن تأثيرهم في تلامذتهم بطيء، فلا يكاد يشعر هذا المبعوث بالخطر العظيم الذي يواجهه في أساتذه.

كان للابتعاث أكثر من دافع، بعضها كان منّا دعت إليه حاجة بلادنا، وبعضها كان من أعدائنا الذين أرادوا أن يصوغوا قيادات فكرية لا تعطي الإسلام الأهمية الكبرى في الحياة، ثم وجهوا دراسة المبعوثين الوجهة التي تحقق لهم أهدافهم ولا تنتهي بنا إلى التطور التقني (التكنولوجي) المطلوب.

وكان للابتعاث أكثر من مظهر، بعضها إيجابي بناء وهو

مسايرة الحضارة الإنسانية والاكتساب من علومها، وبعضها سلبي هدام سنتحدث عنه عندما نتحدث عن آثار الابتعاث .

تلك جوانب من بحث (الابتعاث) تقودنا إلى موضوع حال المبتعثين :

واقع المبعوثين :

سأقدم فيما يأتي خلاصة ما توصلت إليه من دراسة واقعية (ميدانية) قمتُ بها مع عدد من المبتعثين الذين أقاموا في جهات مختلفة من ديار الغرب ، وفي أوقات مختلفة، ونريد من وراء هذه الدراسة أن ننصف هؤلاء الشباب الذين هم فلذات أكبادنا ، وهم في معظم الأحيان الصفوة المنتقاة من شباب الإسلام . لقد تبيّن لي أنّ شبابنا المبتعثين يواجهون في الواقع مشكلات كثيرة جداً لا يتسع

المجال لعرضها كلها ، أما أهم المشكلات التي يواجهونها فهي ما يأتي :

١ ـ الصعوبات التي يتعرض لها الطالب قبل سفره من ناحية الاتصال بالجامعات ، وغالباً ما يترك أمر الاتصال بالجامعة للطالب ولجهوده الشخصية ، ولذا تراه مستعداً للالتحاق بأية جامعة تقبله ، وأسوأ الجامعات مستوىً هي عادة أسرعها رداً على طلبات الطلاب وقبولهم .

ويمكن تلافي هذه الصعوبات بأن تقوم الجهات الرسمية والجمعيات الإسلامية باختيار المكان الأصلح ومساعدة الطالب على الحصول على القبول ليضمن المستوى الجيد والدراسة المثلى .

٢ ـ الصعوبات التي يلقاها المبعوث من ناحية السكنى .. إنه غريب لا يتكلَّمُ لغة البلد الذي يقصده بطلاقة ، والغريب ـ عادة ـ لايستطيع الحركة لعدم معرفته ، وكثيراً ما

تعمد جهات تبشيرية أو استعمارية لتلقي الوافدين ؛ لتفسد دينهم وأخلاقهم ، ومن أكبر وسائل الإفساد تسهيل الزنا لهم ،وتستخدمهم بالتالي في مآربها وغاياتها .

وتعالج هذه الصعوبات بأن يقوم الصالحون الموجودون من قبلُ في تلك البلاد ــ ولا سيما اتحادات الطلاب المسلمين ــ بتهيئة المسكن والوضع المناسب للطالب المبتعث.

٣ ـ صعوبة اختيار البحث المناسب وصعوبة موافقة المشرف على الموضوع الذي يرى الدارس حاجة أمته ودينه وبلاده له ، ومن ذلك ما جاء في كتاب أستاذنا الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله : «السنة»، قال عن الدكتور محمد أمين المصري : « وما كاد يطلع على برامج الدراسة ، وخاصة دراسة العلوم الإسلامية فيها حتى هاله ما رآه من تحاملٍ ودسّ في كتب المستشرقين وخاصة (شاخت)، فقرر

أن يكـون موضـوع رسالتـه نقـد كتاب شـاخت . تقـدّم إلى البروفسـور (أنـدرسـون) ليكـون مشرفـاً على تحضير هـذه الرسـالة وموافقاً على مـوضوعها ، فأبـى عليه المستشرق أن يكون موضوع رسالته نقد كتاب (شاخت) . وعبثاً حاول أن يـوافق على ذلـك . فلمّا يئـس من جـامعـة لندن ذهـب إلى جـامعـة كمبردج وانتسـب إليهـا ، وتقـدّم إلى المشرفين على الدراسات الإسلامية فيها برغبته في أن يكون موضوع رسالته للدكتوراه هو ما ذكرنا ، فلـم يبدوا رضاهم عن ذلك ، وظنّ أنّ من الممكـن موافقتهم أخيراً ، ولكنّهـم قالوا لـه بصريح العبـارة : إذا أردت أن تنجح في الـدكتـوراه فتجنب انتقـاد (شاخت) فإن الجامعة لن تسمح بذلك)[1] .

٤ـ عدم الإلمام الجيد باللغة الأجنبية ، وقد مرَّ ذكر هذه

(١) « السنة ومكانتها في التشريع » ١٧ ـ ١٨ الطبعة الثانية .

المشكلة عرضاً في المشكلة الثانية. وكثيراً ما يتعرض الطالب للأخطار المحققة في خلقه ودينه وفكره من أجل التمكن من اللغة الأجنبية، إذ ينصحه بعضهم باتخاذ صديق أو أكثر من أبناء البلد الأجنبي الذي يقصده، وغالباً ما يفضّلُ له ـ مع الأسف الشديد ـ أن يكون هذا الصديق من الجنس الآخر !! وهناك تكون الطامة التي قد تفسد على الطالب دراسته نفسها، بل دينه وخلقه وكيانه كله. وقد يزينون له أن يسكن مع أسرة من أهل تلك البلاد، وفي ذلك ما فيه.

وعلاج هذه المشكلة يكون في أن يستعدَّ الطالبُ قبل سفره استعداداً لغوياً مناسباً وذلك بأن يدخل بعض الدورات التي تقويه في اللغة، وكذلك فإنَّ عليه أن يدخل بعض المعاهد الخاصة في البلد الذي يسافر إليه، ويحسن أن يكون ذلك بالاتفاق والتشاور مع بعض الجمعيات

والمؤسسات الإسلامية القائمة في بلاد الغرب. والقائمون على هذه الجمعيات لهم تجارب سابقة في هذا المجال، فبإمكان الطالب أن يستفيد من ذلك الاستفادة التي تجنبه كثيراً من المزالق.

٥ ـ الوسط السيئ الذي يحل فيه؛ ذلك أن الصالحين في بلاد المسلمين قليلون، فما بالك هناك في ديار الكفار. وقد يكون كثير من أبناء بلده الموجودون هناك من نوعية سيئة فكراً وتديناً وخلقاً.

إن بعض الطلاب لا تغريهم بالرحلة إلاّ سهولة دخولهم في جامعات أوروبا ذات المستوى السيئ وصعوبة دخولهم في جامعات بلادهم لاشتراط معدل لم يستطيعوا إحرازه. فإذا كان هؤلاء من ذوي السلوك المنحرف ساعدهم هذا الواقع على السقوط الخلقي وسهّل لهم أسبابه، ولذلك فأنت ترى عدداً ليس بالقليل من أبناء المسلمين هناك

ساقطين منكبين على الملذات والشهوات ولا يكادون يلتفتون إلى دراستهم ، إن أمثال هؤلاء الطلاب يضاف إليهم زملاء الطالب من الأجانب يشكلون وسطاً يغريه بالفساد والإفساد .

وعلاج هذه المشكلة يكون بإعداد الوسط الإسلامي المناسب ، واختيار الجامعة الجيدة التي يستطيع أن يجد فيها التجمع الإسلامي المنشود .

٦ ـ انقطاع الصلة بين المبعوث وبلده : وهذا يساعد كثيراً على التحول من الولاء لبلده ودينه وأمته إلى ولاء للمجتمع الجديد الذي يضمه ، وقد نتج عن هذا الانقطاع تخلي عدد من النابغين عن جنسياتهم والاندماج في المجتمع الجديد لقاء إغراءات مادية كبيرة. إن هؤلاء النابغين يكونون بمنزلة الدم الجديد يزيد في قوة الأعداء ويمدُّ من أجلِ حضارتهم .

ولو أنَّ الصلة كانت معقودة لما خسرت البلاد طاقات وإمكانات كثيرة، هذا وقد كنت من سنوات سمعت إحصاء مذهلاً يتحدث عن فرار الطاقات والإمكانات والعقول من بلاد المسلمين إلى بلاد الكفار التي كانوا يدرسون فيها[1].

وعلاج ذلك أن تقوم الدولة المبتعثة والجمعيات الإسلامية بوصل هؤلاء الشباب ببلدهم، واستقدامهم إليها الحين بعد الحين بدعوتهم وتحمل نفقات سفرهم، وبتوعيتهم عن واقع هؤلاء الذين يعيشون بين ظهرانيهم، وبنقل الأخبار ولاسيما أخبار بلدهم من وجهة النظر الإسلامية، وبتزويدهم بالمجلات الرصينة، والجرائد الجيدة، وبالنشرات الهادفة، وبالاستمرار بمراقبة المبتعث، وبإنشاء نوع من الروابط الصالحة الهادفة بين المبعوثين

(١) انظر تفصيل ذلك في فصل آثار الابتعاث ونتائجه من هذا الكتاب.

أنفسهم .

٧ ـ صعوبات دراسية في التخصص ، وهذه ناحية في غاية الأهمية ، وأبرز ما تكون واضحة في المبعوثين الرسميين الذين يوفدون على حساب الدولة التي تحدد تخصصات معينة وترسل المبتعثين لدراستها . ويحدث كثيراً ـ لأسباب متعددة ـ أنَّ المبتعث لا يستطيع مواصلة دراسته في التخصص الذي اختير له ولكنه لا يستطيع تغييره ... حتى إن بعض الدول إذا علمت أنّ الطالب غيّر تخصصه تقطع عنه المنحة وتطلب عودته .

ويجب في مواجهة هذه الأمور أن تُدْرَس كل حالة على حدة ، ويُنْظر إليها بعين العدل والإنصاف ، فإن ثبت أن الطالب جادّ ، ولكن لأسباب لا تعود إلى إهماله وانصرافه عن التحصيل تعثَّرَ في دراسة هذا التخصص، فالواجب إتاحة الفرصة له ليعمل على دراسة التخصص الملائم له .

وكان يمكن تدارك ذلك لو أن هناك هيئة إسلامية تمدُّ للطالب يد المساعدة والعون والنصح والإرشاد .

٨ ــ وهناك صعوبات أخرى مثل معاناة الصوارف الكثيرة عن الدراسة وهذه الصوارف تعود إلى طبيعة الحياة المنحلة ، والشهوات المبذولة ، بعد انتقال من جوّ محافظ إلى جوّ منحل ، ومثل الانشغال ببعض الأمور الأساسية التي لا يستطيع قضاءها إلاّ على حساب الدراسة، ويصعب استقصاء هذه الصعوبات وتحديدها .

***

هذا واقع المبتعثين وفيه حقائق من الحاضر ، وحقائق من الماضي ، ولاشك في أن حاضر الابتعاث متأثر بماضيه ، كما أنّ حاضره مؤثر في المستقبل ، وللابتعاث ماض وتاريخ، فلننظر في تاريخ الابتعاث .

***

من تاريخ الابتعاث :

إنّ دراسة تاريخ الابتعاث بأنـاة وتأمل ، والنظر في آثاره على المبعوثين السابقين أمرٌ في غاية الأهمية في موضوعنا هذا . وإنه لخليق أن يلقـي نوراً كشافاً يظهـر أغراض الابتعاث جلية صريحة . وهو مـوضوع طويل يصلح أن يكـون رسالة دكتوراه تستقـل بدراسة هذا التـاريخ وتلك الآثـار . ولقد قرأت كثيراً مما كتب فيه ولم أستطع قراءة كثير مما تاقت نفسي إلى المضي في الاطلاع عليه . وأنا هنا لا أستطيع التفصيل في هـذا الموضوع لأنّ ذلـك يخرج بي عن حـدود البحث التـي رسمتها له .

أول بعثة :

من الأمور التي تزل فيها أقـدام كثير من الباحثين تقرير الأوليات بجزم دون استقصاء ، وبنـاءً على هذا فلا أستطيع الجزم بأول مبعوث أو بأول بعثة ذهبت من بلاد المسلمين إلى

ديـار الكفار لتلقـي العلم ، ولكننـا نستطيع أن نقـول : إنّ أشهر هذه البعثات هي تلك التي كانت أيام محمد علي والي مصر ، وفي النصف الأول مـن القرن الثالـث عشر الهجري (أي في مطلع القـرن التاسع عشر النصراني) يقـول الأستاذ محمد عبدالغني حسن :

(يجمع المؤرخون لعصر محمد علي ــ مصريين وأجانب ـ على أن بعثة ١٨٢٦ هـي البعثة الأولى ، ويخالفهـم في ذلك الأمير عمر طوسون الذي يجعل بعثة نقولا مسابكي وزملائه إلى إيطاليـا سنة ١٨١٣ هي أول بعثة لمحمـد علي ، ويجعل بعثة عثمان باشـا نور الدين وزملائه إلى فـرنسا سنة ١٨١٨ هي البعثـة الثانية ، ويجعل بعثة سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا ثالثة البعثات المصرية)[1].

---

(١) انظر « أعلام من الشرق والغرب » ص ٥ـ ٦ .

فهذا النص يؤيد ما ذهبنا إليه من صعوبة تحديد البعثة التعليمية الأولى إلى ديار الغرب ؛ لأننا رأينا أنّ مثل هذا التحديد بالنسبة إلى محمد علي كان موضع اختلاف.. من أجل ذلك نؤثر أن نقول: إنّ بعثات محمد علي[1] التي هي

(١) أود أن أقرر هنا أن شخصية محمد علي تستلفت نظر الباحث المسلم لما قام به هذا الرجل من أدوار ، إذ قام بضرب أول حركة إسلامية حديثة وأعظم حركة وهي حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ووصلت جيوشه إلى الدرعية فدمرتها تدميراً وحارب الدولة العثمانية في وقت كانت هذه الدولة فيه هدفاً لمؤامرات الكفار وكيدهم ، وفرق المسلمين ، وحملهم حملاً على أخذ حضارة الغرب الأخذ الأعمى .

أفلا يحق لمن يدرس تاريخ هذه الحقبة وتاريخ هذا الرجل أن يرتاب في شأنه ؟

أفلا يحق للدارس أن يظن أن محمد علي قد وقع في كيد الكفار عن غير شعور منه على الأقل ، وأنه قدم لهم خدمات فكرية واجتماعية لا تقدر ولا توصف !! أقول : يتطلب الحكم على ذلك دراسة متأنية مستفيضة ولكن هذه التساؤلات واردة جداً . ومن سوء حظ المسلمين أن كان هذا الرجل الخطير في مصر ذلك البلد العظيم الذي آلت إليه زعامة العالم الإسلامي وأضحت أية حركة فيه تترك آثاراً ضخمة في كل بلاد المسلمين شرقيها وغربيها ولاسيما البلاد العربية منها .

أشهر البعثات وأكثرها تأثيراً في حياتناكانت في مطلع القرن التاسع عشر أو الربع الأول منه .

البعثات إلى فرنسا :

ويستوقف الباحث تساؤلٌ مريب بالنسبة إلى مكان ذهاب هذه البعثات المصرية لماذا كان إلى فرنسا دون غيرها؟ ونحن نعلم أن فرنسا غزت مصر أيام نابليون [1] قبل تولي محمد علي بسنوات وأن خيل الفرنسيين دخلت الأزهر وأن جنودهم جاسوا خلال الديار وأتوا بفظائع مستنكرة.. فكيف تعمد حكومة مصر ــ بعد أن تخلصت ديارها من

(١) لابد أن نشير إلى أن أثر هذه الحملة كان كبيراً جداً ، ويؤسفني أن أقرر أنَّ هناك أغاليط وأكاذيب تُطلق ويتناقلها الناس حتى تصبح حقيقة عند كثير من الناشئة ، ومن ذلك هذه الأكذوبة التي دُجّل علينا بها وقيل : إن عصر النهضة يبدأ من الحملة الفرنسية ، والحق أن هذه الحملة هي التي قادتنا إلى نكسة فظيعة ما زلنا نعاني من آثارها الشيء الكثير حتى الآن. وانظر بعض آثارها التخريبية في رسالة أستاذنا محمود محمد شاكر: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا».

الاحتلال الفرنسي ـ إلى أن ترسل أبناءها إلى فرنسا الغازية ؟ وبلد الغزاة المعتدين الذين ولغوا في دماء الآمنين من السكان ، لا يصلح أن يكون محلاً لدراسة أبناء الأمة المظلومة المعتدى عليها ، لأنّ الحقد الذي يغلي في الصدور على الظلمة المجرمين لا يتيح للوافدين مناخاً ملائماً للدراسة ، ولأن هذا الوضع العدائي لا يقنع المبعوثين بالأمن هناك .

قد يقول قائل : إن العلاقات السياسية هي التي قضت بهذا وفرضته ، ولكن أمراً واضحاً لابد أن نذكره ، وهو أنَّ إفساد الطلبة المبعوثين لم يكن ليتحقق في بلد من البلاد الأوروبية كما كان يمكن أن يتحقق في فرنسا التي خرجت من الثورة الفرنسية وهي تسبح في بحور من الفوضى الخلقية والفكرية والاجتماعية... من أجل ذلك كانت فرنسا محل البعثات .

ومن المفيد أن نذكر أنّ أول وزير لوزارة المعارف المصرية هو أحد أفراد بعثة ١٨٢٦ وهو مصطفى مختار المولود سنة ١٨٠٢ والمتوفى سنة ١٨٣٩ وقد عاد إلى بلاده سنة ١٨٣٢ أي رحل إلى فرنسا وهو ابن أربع وعشرين سنة وأقام هناك ست سنوات ، وهي الفترة التي يتم فيها تكوين شخصية المرء وثقافته ، وكان في سنٍّ هي ذروة التهاب الشباب .

ويبدو أنه كان هناك في فرنسا يستجيب لرغبات من رغبات نفسه ، فقد ذكر مترجموه أنه كان لديه ميل إلى الموسيقى ، فأرسلت له ساعة دقاقة تحدث نغماً موسيقياً، كما اشتريت له آلتان موسيقيتان بـ ١٨٤ فرنكاً على حساب الدولة في أثناء إقامته هناك[1] وكما يدل هذا الخبر على ميل مصطفى للطرب والموسيقى واشتغاله بهما في فرنسا في أثناء طلبه العلم يدلُّ أيضاً على رغبة الدولة في ذاك العهد المبكر

(١) « أعلام من الشرق والغرب » لمحمد عبدالغني حسن ص ٨.

المتقدم من اتصالنا بالحضارة على مسايرة الشباب في رغباتهم ، ومسارعتها لتحقيق ما يريدون من وسائل اللهو والعبث ، فلو أن دولة إسلامية قامت الآن بإرسال مثل ذلك إلى بعض المبتعثين لاستغربنا ذلك منها . والموسيقى الآن وموقف الناس منها يختلف عن موقفهم منها قبل مائة وخمس وسبعين سنة ، قطعنا خلالها أشواطاً من التطور قد تعادل ما قطعناه خلال ألف ومائتين من السنين قبل ذلك .

ولم يلتزم المبتعثون الحدود التي أرادها مرسلوهم ، وعندما حاول بعضهم أن يتشدد في إلزام المبعوثين بعدم مجاوزة المهمات الأصلية باءت محاولتهم بالإخفاق (١).

يقول الدكتور محمد محمد حسين :

(وكان هؤلاء المبعوثون الذين أرسل أكثرهم إلى فرنسا يقرؤون الكتب الفرنسية ويشاهدون الحياة الفرنسية في

(١) « الإسلام والحضارة الغربية » ص ١٦ .

أحفل العصور بالصراع الفكري الذي يصحب الثورات ، وكانت فرنسا تعيش في أعقاب الثورة الفرنسية وما صاحبها وتلاها من قلق فكري وروحي لم يبلغ نهاية مداه ، وقد احتل هؤلاء المبعوثون من بعد مكان الصدارة والقيادة في مختلف الميادين)[1] .

ولو أن الأمر وقف عند حد احتلال هؤلاء مناصب الوزارة والقيادة لهان الأمر شيئاً ما ، ولكن الأمر كان أعظم رُزْءاً وأجل كارثة ، فقد كان المجلس الذي أشرف على التعليم أيام محمد علي من الأجانب والأرمن ومن المصريين الذين أتموا دراستهم في الخارج .

وقد ذكر الأستاذ محمد عبدالغني حسن من أسماء أعضاء المجلس الأسماء الآتية : (كلوت بك ـ وكياني بك ـ

---

(١) « الاسلام والحضارة الغربية » ص ١٧ .

وأرتين أفندي ـ واسطفان أفندي ـ ورفاعة الطهطاوي ـ وبيومي أفندي ـ وفارين ـ وحكاكيان ـ ولامبر ـ وهامون ـ ودزول) .

إنّ هذا الخبر التاريخي المثير ليكشف لنا عن خبيء كان يتوارى خلف الابتعاث، ولو أننا درسنا حياة رفاعة[1] ومؤلفاته لتبيّن لنا ـ مع الأسف الشديد ـ أنّ أعداءنا قد وصلوا إلى كثير مما يريدون . فالرجل كان معجباً غاية الإعجاب بحياة القوم ، ورجع يمجد لأول مرة الفراعنة الكفار ، ويذكرهم كما يذكر الرجل أبطاله وصانعي مجده ، مع أن المسلمين في أقطار الدنيا كافة كانوا ولا يزالون يسمون عهد ما قبل الإسلام بالجاهلية. وإذا كان هذا حال

---

(١) انظر خبر رفاعة فيما سننقله عن « رسالة في الطريق إلى ثقافتنا » للأستاذ محمود محمد شاكر .

الرجل الأزهري المعمم الذي أوفد ليكون إماماً للطلبة ومرشداً لهم. فما بالك بالآخرين الذين كانوا معه ؟؟؟؟ .

ونستطيع ـ كما يقول صديقنا الدكتور محمد محمد حسين ـ أن نجد فيما كتبه رفاعة صدى لتفكير القرن الثامن عشر في أوربا وفي فرنسا الثائرة بوجه خاص ... أن نجد آراء تظهر للمرة الأولى في المجتمع الإسلامي .

* للمرة الأولى في البيئة الإسلامية نجد كلاماً عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوربا الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض يراد اتخاذها وحدة وجودية يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر ليكونا وحدة متكاملة ذات شخصية مستقلة تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين .

* وللمرة الأولى نجد اهتماماً بالتاريخ القديم يوجه

لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد .

* ولأول مرة تنقل إلى المسلمين النظريات الثورية .

* ولأول مرة نرى عرضاً للنظم الاقتصادية الغربية التي تقوم على المصارف والشركات .

* ولأول مرة نرى كلاماً عن المرأة ليس من شك في أنه من وحي الحياة الاجتماعية الأوربية مثل إنكار تعدد الزوجات ، والمطالبة بتحديد الطلاق والمطالبة باختلاط الجنسين .

***

ويبدو أن الحدّة في الابتعاث كادت تهدأ ، وذلك عندما قامت حركة نشيطة في نقل العلوم التجريبية والتطبيقية إلى اللغة العربية غير أنّ قوى آثمة خائنة أوقفت هذه الحركة ودعت إلى الابتعاث .

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر : (... فإنَّ كثيراً من

الكتب قد ترجم يومئذ إلى العربية في أنواع العلوم كالطب والهندسة والرياضيات والعلوم الحربية ، وطبع أيضاً بمصر طباعة جيدة ، ولكن يظهر أن القناصل خوّفوا هذا الطاغية الجريء عقبى تيسير العلوم لطلابها من أبناء مصر ، بنشرها بلسانهم ، وزينوا له أن يقتصر على البعثات التي تدرس في الخارج)[1] .

***

ومن المفيد أن ننقل للقارئ الكريم ما جاء في رسالة الأستاذ محمود محمد شاكر عن واقع الابتعاث ونتائجه ، وهذا يُبَيِّنُ الدور الهدام الذي قام به محمد علي الذي كان دمية بيد أعدائنا ينفذ ما يأمرون به .

وقد سبق الأستاذ محمد عبده الأستاذ شاكراً في بيان

---

(١) « أباطيل وأسمار » ص ١٨٩ .

تخريب ذاك الطاغية ، وكشف حقيقة ما يذكرونه من محاسن لمحمد علي .

يقول الأستاذ محمد عبده :

[ما الذي صنع محمد علي ؟ لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت ، كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وممن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه وهكذا...]

الأعمال الكاملة لمحمد عبده ١/ ٧٢٣ [(١)].

وقال :

[أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى]

---

(١) نقلاً عن المنار ١ ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ (٧ يونية ١٩٠٢م) وقد نشر هذا المقال بتوقيع : مؤرخ .

الأعمال الكاملة : ١/ ٧٢٤

وقال :

[ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسلطان العثماني ، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين ، فأوسع لهم في المجاملة ، وزاد لهم في الامتياز]

الأعمال الكاملة : ١/ ٧٢٤

ثم أتى الشيخ محمد عبده على المحاسن وبيَّن أن هذا الطاغية ما فعلها إلا لمصلحة شخصية ولتدمير مصر ثم ختم مقالته بأن قال : [ولا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجراً زارعاً ، وجندياً باسلاً ومستبداً ماهراً ، لكنه كان لمصر قاهراً ولحياتها الحقيقية معدماً] .

الأعمال الكاملة: ١/ ٧٢٨

وقد أشرنا أنَّ لمصر تأثيراً على العالم الإسلامي لأسباب عدة لا مجال لذكرها الآن، ومن هنا كان تركيز الكفار عليها في العصور الأخيرة.

هذا وقد أشرت في حاشية وردت في صفحة ٧٦ من هذا الكتاب إلى ضرورة دراسة حقيقة محمد علي ودوره في تدمير شخصيتنا، وقد وجدت أستاذنا محمود محمد شاكر قد أسهم في ذلك. وسأنقل كلامه المتعلق بالبعثات والابتعاث في عهد محمد علي، من كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»[1] قال حفظه الله:

[يقول الكاتب المؤرخ المُدَجَّن «عبدالرحمن الرافعي» في كتابه: «تاريخ الحركة القومية، الجزء الثالث عصر محمد

(١) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» من ص ١٣٩ـ ١٤٩.

علي» ص: ٤٥٢ في باب «البعثات العلمية» :

« لو تأمّلت مليّاً في العصر الذي نشأت فيه هذه الفكرة، واختلجت في نفس محمد علي ، لعجبتَ لعبقريته كيف أنبتت هذا المشروع . ففي ذلك العصر لم يفكّر حاكم «شرقي» ولا حكومة شرقية في إيفاد مثل هذه البعثات . وهذه تركية ، وسلطانُها كان يملك من الحَوْل والسلطة أكثر مما يملك محمد علي ، لم تفكّر حينذاك أصلاً في إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الاوربية ، فصدور هذه الفكرة، في ذلك العصر ، وفي الوقت الذي كان محمد علي مشغولاً فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس ، يدلُّ حقيقةً على عبقرية نادرةٍ وهمَّة عالية »... تأمّلْ ثم تأمّل ، ويَا للعجب لهؤلاء المؤرخين المُدَجَّنين!

والحقيقة أن فكرة « البعثات العلمية » لم تكن نابعة من

عقل هذا الجنديّ الجاهل «محمد علي» ، بل كانت نابعةً من عقولٍ تخطّط وتدبّر لأهـدافٍ بعيدة المدَى ، استغلَّت ما في نفسه من المطَامع ، وحُبِّه للسيطرة، أحاطت به « القناصل» وهي تـراقب أهواءَه ومَطـامعه ، فجعلـت تغذِّيها وتزيـدها تـوهُّجـاً ، لتجعلـه قُـوَّةً في قلـب دار الإسـلامِ ، تُنَـازع دارَ الخلافة في تـركية سلطـانَها ، وتنشقُّ عنها انشقـاقاً يـزيدُ في تفكُّـك دار الإسـلام ، ويُسْرِع في انهيــار دار الخلافـة ، وفي تمزيقها وضعفهـا وارتخاء قَبْضَتها على أطـراف دار الإسلام ، ويمهِّد للمسيحيـة الشمالية السبيـلَ إلى تخطُّف أقـاليم دار الإسلام بعـد أن تصير أشلاءً ممزقةً عـاجزةً عن الدفـاعِ عن نفسها= على أن تكون هذه القـوَّة الجديدة ، قُوَّة محمد علي ، في قبضة المسيحيـة الشمالية ، تصرِّفها كيـف تشاء ، وتقضي عليها قضـاءً مُدمِّـراً يومَ تحتـاجُ إلى هذا التـدمير . ولذلـك كـانت هـذه البعثـات الصغيرة كلهـا ، منذ سنـة ١٨١٣م،

تتعلق بالصنائع التي تتعلَّق ببناء الجيش المصريّ لا أكثر، وكانت هذه البعثات أيضاً قليلةَ العدد، ينتفع بها محمد علي في حروبه في جزيرة العرب (من سنة١٨١١ ـ ١٨١٩م)، وفي تخطُّفِ أجزاءٍ أخرى كانت تحت سلطان الدولة العثمانية ودار الخلافة، ليزيد هذا التخطُّف في ضعفها وتفكُّكها. هذه كانت غاية «القناصل» الذين أحاطوا بمحمد علي إحاطةً كاملةً، وصارُوا عقله الذي يفكُر به، وصارَ هو دُمْيَةً في أيديهم يحرِّكونها إلى غاياتهم ومقاصدهم.

ولما فرغ « محمد علي » من تحطيم « اليقظة » التي كانت في جزيرة العرب، سنة ١٨١٩م، وعلا بذلك شأنُه، وأرسى قواعد ملكه في الديار المصرية = كان في فرنسَا رجُل كبيرٌ ممَّن شاركوا في الحملة الفرنسية، كان مهندساً بارعاً، وكانت له منزلة كبيرة عند «نابليون» والمستشرق «فانتور »

خليلِ نابليون ونَجِيِّه ، وانتُخِب بعد عودته إلى فرنسا عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يخصُّ مصر ، هو المسيو جُومار (أدم فرنسوا جومار ـ ١٧٧٧ ــ ١٨٦٢م). فلما رأى نجاح «القناصل» في إغراء «محمد علي » بإرسال البعثات إلى أوربة ، ما بين سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٩م= أسرع جومار بحثُّ « الاستشراق » الفرنسي وقناصله في مصر ، على إغراء محمدعلي بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا ، ليجعلها تحت إشرافه ، ولينفِّذ مشروع «نابليون» الذي بيَّنه لخليفته « كليبر » في رسالته إليه .

وإذا كان «نابليون» =بتخطيط المستشرق «فانتور» =قد بنى مشروعه على أن يجتهد «كليبر» في أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد العدد كافياً ، فليستعض عنه برهائن من العرب ومشايخ البلدان ،

ويسفّرهم إلى فرنسا ، فإذا ما وصلوا حُجزوا مدَّة سنة أو سنتين، يشاهدون في أثنائها عظمة الأمّة الفرنسية، ويعتادون على لغتها وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر ، كان لفرنسا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم = إذا كان مشروع نابليون ، الذي يرادُ به تكوين حزبٍ للفرنسيين في مصر ، معتمداً على الوُلاة من المماليك ومشايخ البلدان الذين يتولَّون حُكْم البلادِ في زمانه ، فإن «جومار » قد طَوَّر هذا المشروع تطويراً كبيراً ، بعد خمسٍ وعشرين سنة من رحيل الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١م= ويكوِّن حزباً لفرنسا في مصر أخطر من حزب نابليون .

لقد سنحت لجومار أعظمُ فرصةٍ باستجابة محمد علي لإرسال بعثات إلى أوربة ، فبنى مشروعه ، لا على كبار السنّ من المماليك ومشايخ البلدان ، بل على شبابٍ غَضٍّ يَبْقون في فرنسا سنواتٍ تطول أو تقصُر، يكونون أشد

استجابة على اعتياد لغة فرنسَا وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزباً لفرنسا ، وعلى مرّ الأيام يكبرون ويتولَّوْن المناصبَ صغيرَها وكبيرَها ، ويكون أثَرُهم أشدَ تأثيراً في بناء جماهيرَ كثيرة تبثُّ الأفكار التي يتلقَّونها في صميم شعب دار الإسلام في مِصْر ، هكذا طوّر جومار مشروع نابليون الذي لم يستطع « كليبر » أن يحققه وهلك دونه .

***

نجح جُومار ، ونجح « الاستشراق » وقناصله في إغراء محمد علي بإرسال بعثةٍ كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا في يولية سنة ١٨٢٦م (سنة ١٢٤٢هـ)، وتتابعت هذه البعثات إلى سنة ١٨٤٧م (سنة ١٢٦٤هـ)، وكانت كلُّها تحت إشراف « جومار » يصنعُها على عينه. كانوا شبَّاناً صغاراً ، ليس في عقولهم ولا قُلُوبهم إلا القليلُ الذي لا يُغني من «الثقافة المتكاملة » التي عاشت فيها أمَّتهم قروناً متطاولةً،

ووضعهم جومار تحت أيـدي « المستشرقين » يوجِّهونهم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التي يريدونها ، ويُعْطونهم القدرَ اليسيرَ المتَّفـق عليه بينهـم من العلـوم التي يـدرسونها، ثـم يردُّونهم بعد سنوات قـلائل إلى مصر ، وإلى دولة محمد علي التـي أسَّسهـا ، وهـو ودولتـه في قبضـة «القنـاصـل» و «الاستشراق » ومَشُورتهم ، لا يستطيـع فكاكـاً منها ، لأنـه كـان جـاهـلاً لم يتعلَّم علماً قـطُّ ، حتـى الخط والكتـابـة لم يتعلمها إلاّ وهـو في الخامسـة والأربعين مـن عمـره (سنـة ١٨١٥م/ ١٢٢٩هـ) .

كـانت أوّل بعثة في سنة ١٨٢٦م (سنة ١٢٤١هـ)، فيها ٤٤ تلميـذاً ، أدخلهم مسيـو جـومـار المدارس الفرنسيـة ، ليتلقَّوا اللُّغة والعلومَ والفنون ، ثم أعيدوا بعد سنوات قلائل إلى بلادهم يتـولّون المناصب والأعمالَ . وهـذا شيءٌ غريبٌ جداً أن يكون هؤلاء الشباب قد حازوا في سنواتٍ قلائل من

العلوم والفنـون التي شابـت نواصي العلماء في سبيلهـا ، ما يؤهلهم للتدريس والصنـاعات والأعمالِ وجلائل الأمورِ . شَيْءٌ غريـبٌ جداً !! وهم قبل سَفَـرهم لم يحصلوا مـن هذه العلوم والفنـون الجديدة شيئاً يذكـر ، أليسَ هذه الـدعوى غريبة كل الغرابة ؟

● وكانَ في هذه البعثة الأولى ، رجُلٌ قـد خرج مع البعثة إمَـامـاً لها ، ليراقـب أفـرادَ البعثـة ، ويصلِّي بهم الصلـوات الخمسَ ، هو «رفاعة رافع الطهطـاوي»، وُلِدَ بمدينة طهطا بمديرية جرجا سنة ١٢١٦هـ، (١٨٠١م) في أسرة رقيقة الحالِ ، فـأتـمَّ حفـظ القـرآن، وقرأ شيئـاً مـن متـون العلـم المتداولة على بعض العلماء في بلده، ثم تُوفِّي والده رحمه الله ، فـرحـل إلى القـاهـرة وهو في السـادسـةَ عشرةَ مـن عمـره ، (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م)، وانتظـم في سلك طلبـة الأزهـر ، يتلقَّى العلم عـن شيوخه ثماني سنوات، وكـان محباً للأدب.

وفي سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م عُيِّن واعظاً وإماماً في أحد ألايات جيش محمد علي . فهذا إذن شابٌ في الثالثة والعشرين من عمره ، لا يمكن أن يكون قد بلغ مبلغاً له شأنٌ يذكر في «الثقافة المتكاملة» التي عاشت فيها أمَّتُه ثلاثةَ عَشر قرناً في حضارة متكاملةٍ متراحبةٍ مترامية الأطراف ، متباينةِ الدَّرجات ، متنوِّعة العلوم ، قد بلغت في العَظَمةِ والجلالةِ مبلغاً لم تدركه قبلها أمةٌ من الأمم .

ثم يُخْتارُ هذا الشابّ في سنة ١٢٤١ هـ /١٨٢٦م ليصحبَ بعثة إلى فرنسا ، يكون إماماً لأعضائها. كان ذكياً ، نعم . كان محباً للعلم والأدب (أدب عصره وشعر عصره)، نعم . كان قويَّ العزيمةِ ، نعم. كان نابهاً بين أقْرانه ، نعم، ولكنَّه على ذلك كُلِّه في الخامسة والعشرين من عمره ، غَرِيرٌ بَيِّنُ الغَرارة ، طَرِيُّ العُود ، قد جاء من أقصى الصعِّيد ، ومن ظُلُماته وبؤسه وفقره وخَصاصته ، وهو في السادسة

عشرةَ من عمره ، ثم أقام تسعَ سنواتٍ في القاهرةِ ، في حَواري الأزهر المهدَّمة المخرَّبة بيوتُها بفعل الفرنسيس ، الضيِّقة طُرُقاتها ، المظلمة أزِقَّتُها = ثم يركبُ سفينة فرنسية تتلالأ أنوارُها تَرْمِي به إلى قلب باريسَ (في القرن التاسع عشر)، بحدائقها وميادينها وأنوارِها ومبَاهجها ، وما لا رأته من قبل عينٌ كعينه ، وما لاَ خَطَر على قلبٍ كقلبه . أيُّ فِتْنةٍ تذهبُ بعقل هذا الفتى ، وترجُّه رجًّا لا قِبَل لمثله باحتمالِه ؟ وكذلك كان!

أيُّ صَيدٍ سمينٍ تلقَّفه « المسيو جومار » بخبرته وحُنكتِه وتجربته وبَصرَه النافذ ؟ فتىً ناشىءٌ في قلب الأزهر ، ذكيٌّ ، محبٌّ للعلم والتحصيل ، قويُّ العزيمة ، رآه مفتوناً بالأرض التي وطئتها قدمُه ، لم يَرَ مثلها من قبل ، ورآه مُقبِلاً بأقصى عزيمته على تعلُّم لُغَته الفرنسية ، معجباً بها وبأهلها كُلَّ الإعجابِ فأخذه «جومارُ » من قريب ، فكان له صيداً أيَّ

صيدٍ ! يقـول الرافعي المؤرخ المدجَّن في كتـابه (٣ : ٤٧٦): «ولقد كان معه ثلاثة أئمـة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحدٍ منهم إلى الاغتراف من مناهل العلم في فرنسا (!!)، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيـخ رفاعة ، فكان ذَا نفس طـامحةٍ إلى العُلا ، فـأخذ يـدرسُ اللغة الفـرنسية، وعَكـفَ عليها من تِلقَاء نفسه ، رغبةً منه في تحصيل علومها وآدابها». ويقول رفاعـة الطهطاوي نفسه إنه قضـى في تعلُّمها ثلاث سنوات.

ولم يكدْ حتى أخـذ «المسيو جومار » بنـاصيته ، وأسلمه لطائفـة من «المستشرقين» ، يصـاحبونـه ويوجِّهـونه ، وعلى رأسهـم أحد دهـاقين «الاستشراق» الكبار ودُهـاته ، وهـو المستشرق المشهور البـارون «سلفستر دي ساسي». لم يكـن لهذا الفتى الأزهري الصعيدي المفتون مَخْلَصٌ من أحابيلهم ودَهائهـم ومَكْرهم ورقّة حـاشيتهم ومداهنتهم ، فـاستغلُّوه

أبـرعَ استغلالٍ ، وصبُّـوا في أُذُنيـه ، وطَـرَحوا في قَـرارةِ قلبـه معانيَ وأفكاراً قد بيَّتُـوها ودرسوها وعرفوا عـواقبها وثمراتِها حين تَنْمو في دَخِيلـة نَفْسه [1]، وهم يزيدونـه فتنَةً بإشهاده روائع المحافِـل التي تتـألقُ أنـوارها ، وتتـألق تحت أنـوارها أيضاً مفاتـن النساء الكاسيات العاريـات ، والرجال ذَوي الأُبَّهة يختالون في شمائل الرقَّة الفرنسية ، فزادوه فِتْنةً ، وزادوا غفلته غَفْلةً وانتزعوه انتـزاعاً مما كان يعيش فيه من ظُلُمات الصعيد وبُؤسه وفَقْره ، ومن حواري الأزهر المخرَّبة وطرقاتها الضيقة وأزقتهـا المظلمة ، حتى نَسِي نفسـهُ التي صـاحبَها

(١) انظر مثـال ذلك ، مـا ضمنه كتابـه : « أنوار الجليـل ، في أخبار مصر وتوفيق بن إسماعيل» من الدعوة إلى استعمال العامية «التي يقع بها التفاهم في المعاملات السائرة ، ولا مانع أن تكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصولٌ على حسب الإمكان تربطها ، ليتعارفها أهل الإقليم ، حيث نفعها بـالنسبة لهم عميـم ، وتصنّفُ فيهـا كتب المنـافـع العموميـة ، والمصالـح البلـديـة»، أو كما قـال رحمه الله !! انظـر كتـابي « أبـاطيـل وأسمار » ص:١٥٩، ١٦٠.

خمساً وعشرين سنة ، وتنكَّر لماضيه القريبِ وأعرضَ عنه ، وسارع ينجُو بحياته الجديدة من خطاطيفِه التي تلاحقه .

وقضى رفاعة رحمه الله ست سنوات في باريس من سنة ١٢٤١ ــ ١٢٤٦هـ (١٨٢٦ــ ١٨٣١م)، قضى ثلاث سنوات منها في تعلُّم اللغة الفرنسية كما قال هو بلسانه ، وفي الثلاث الأُخر درس التاريخ ، والجغرافيا والفلسفة ، والآداب الفرنسية ، وقرأ مؤلّفات فولتير وجان جاك روسُّو ، ومنتسكيو ، وقرأ بعض الكتب في المعادن، وفن العسكرية، والرياضيات، (انظر كتاب الرافعي ٣:٤٧٦ وما بعدها) = فحدِّثني بربِّك كيف تكون دراسة هذه المتنوعات في ثلاث سنواتٍ ، إلاّ أن يكون ذلك كُلُّه خطفاً كحَسْو الطائر ، وأن يكون ما ألَّفه رفاعة وكتبه سطواً مجرَّدا على كُتُبٍ كُتِبَتْ في هذه العلوم المختلفة المتباينة ،والله أعلم بما فيها من الزلل والخطأ وسوء الفهم. ولكن رفاعة الطهطاوي على ذلك كُلِّه

إمَـامٌ جـاء يُخرج مصر وأهلَها مـن الظُّلُمات إلى النُّـور!! يـا للعجب!

ولكنّ هـذا الرجل الطيِّب يُحَمَّـل من العبقريـة في إنشاءِ «مدرسة الألسن»، ما حُمِّل محمد علي، الجاهل الذي لم يتعلم قـطُّ، من العبقريـة في الاهتداء إلى إرسـال «البعثات العلمية» إلى أوربة، وفرنسَا خاصـةً! وقصة إنشاء «مدرسة الألســن»، في سنـة ١٨٣٦ م (أي بعـد عـودتــه بخمـس سنوات) ليسـت من فكر رفـاعة الطهطاوي ولا مـن بنات عبقريته، ولكنها ثمرةٌ مـن ثمار «الاستشراق» ودُهاته الذين احتضنوهُ وربَّـوْه وغَذَّوْه ونشّأوه مـدةَ إقامته في بـاريز، وكما يقول الـرافعي: «كـانت مـدرسة الألسـن عبارة عـن كلِّية تدرس فيها آداب اللغة العربيـة واللغات الأجنبية، وخاصة الفرنسيـة والتركية والفـارسية، ثم الإيطـالية والإنجليـزية، وعلوم التاريخ والجغرافيـة، والشريعة الإسلامية، والشرائع

الأجنبية ، فهي أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق ، فلا غَرْوَ أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر » ، ما أعجب أحكام هذا المؤرخ المدجَّن !

وبأقلِّ التأمُّل في مناهج «مدرسة الألسن» تعلم يقيناً لاشكَّ فيه أن رفاعة الطهطاوي نفسَه لم يكنْ مؤهَلاً لتدريس أكثر هذه العلوم ، ولا كان في مصر يومئذ من المصريين مَنْ هو مؤهَّلٌ لتدريسها ، فلا مَنَاصَ من استقدام منْ يُظَنُّ فيه أنَّهُ مؤهَّل لتدريسها من الأجانب ومن «المستشرقين» خاصةً ، وكذلك كان ، فكان هؤلاء الدُّهاة من صنائع « الاستشراق» هم الذين تولّوا تثقيف ١٥٠ تلميذاً كان رفاعة الطهطاوي يختارهم صغاراً من مدارس الأرياف والأقاليم، ومن طلبة الأزهر . وبذلك وضَع رفاعة الطهطاوي أساساً لمدرسةٍ مُلَفّقة ، (لا كلية، كما يقول الرافعي) مبتورة الصِّلة كُلَّ البَتْر ، من مركز «الثقافة

المتكاملة» التي كان الأزهر مَهْدها على قرون متطاولةٍ ، وكان هو وحده على طول هذه القرون ، مركز ثقافة دار الإسلام في مِصر . وكذلك أحدث رفاعة الطهطاوي صَدْعاً مُبيناً في ثقافة الأمَّة ، وقَسْمها إلى شطرين متباينين : «الأزهر » في ناحية ، و «مدرسة الألسن» في ناحية ، وكذلك حقَّق رفاعة لدهاة «الاستشراق» أهمَّ ما يتوقون إليه ، من وَأْدِ « اليقظة » الواحدة المتماسكة التي كان الأزهر مركزها منذُ عهد «البغدادي»، و «الزَّبيدي» و «الجبرتي الكبير »=وفي وقت كان فيه محمد علي الجاهل يحطّم أجنحة الأزهر ، ويضعُه في قفص لا يستطيع الإفلات مِنه ، ويدبِّر كل مكيدة لإسقاط هيبته وهيبة مشايخه ، ويعزلهم عن جمهور الأمَّة عَزلاً بين قُضْبان من الحديد وجُدْرانٍ من الصُّخور= ومرَّت الأيام والسنون ، وهذا الصَّدع يتفاقم، حتى انتهينا إلى ما نحنُ عليه اليوم من الانقسام والتفريق ، وذهبت «الثقافة

المتكاملة» في دار الإسلام في مصر أدراجَ الرياح .

***

وُئِدت « اليقظة » التي كان الخمسة الكبارُ أبطالَها وصناديدَها [1]، وكان ذلك نصراً مؤزّراً ناله « الاستشراق » بدهائه ومكْره وثاقبِ نظَرِه ، نالَهُ من وراءِ غفلة دار الإسلام في مصر ، ومن وراء الجَهْل الذي أُسْنِدتْ إليه أمورُ البلاد ومصائرُها ، وأقام «الاستشراقُ » على قبر «اليقظة» بناءً جديداً راسخَ الأساس ، ظَل يرعاهُ ويحوطُه ويزيدُه رُسوخاً ومتانةً واتساعاً وسُمُوقاً، يضمن للمسيحية الشمالية الغلبةَ والسيطرةَ وتمامَ التمكُّن من إخضاع دار الإسلام

(١) وهؤلاء الخمسة هم عبدالقادر بن عمر البغدادي المتوفى ١٠٩٣هـ (١٦٨٣ م) وحسن بن إبراهيم الجبرتي العقيلي المتوفى ١١٨٨هـ (١٧٧٤م) ومحمد بن عبدالوهاب النجدي المتوفى ١٢٠٦هـ (١٧٩٢) ومحمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي المتوفى ١٢٠٥هـ (١٧٩٠) ومحمد بن علي الشوكاني المتوفى ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م).

لأهدافه وغاياته ، بلا قعقعة سلاحٍ، وبلا مُواجهةٍ بين «ثقافتين متكاملتين» تتصارعان كِفاحاً ، فإمّا تتعايشان على هذا الصراع ، وإمَّا يُحكِّمان السلاحَ حتى يُقْضى لإحداهما على الأخرى بالغلبة ، ثم يصطلحان على حُسن المعايشة وإيثار السلمِ . أمّا الآن فقد انقلبت الموازين ، ومُزِّقت «الثقافة المتكاملةُ» في دار الإسلام ، وانفردت «الثقافة المتكاملة» في ديار المسيحية الشمالية ، بلا قِرْن يكافُئها وينازلُها ، وإنما هو الخضوعُ والاستكانةُ لا غيرُ . وقُضي الأمر الذي فيه تستفتيان !

وذهبَ محمد علي سرشمشة ، وذهَبَ ملكُه وهلك ، وجاء من بعده أولاده وهم في قبضة «القناصل» و «الاستشراق»، والتصدُّع في ثقافة دار الإسلام يتفاقم ، والبعثاتُ الخاضعةُ المستكينة تتوالى ويقعُ أعضاؤها في قبضة «الاستشراق» يصنع أعضاءَها على عينه ، والبليّة التي

أحدثها رفاعة الطهطاوي تتعاظم ، وصارَ الأزهر الذي كان في يديه تعليم الأمة أسيراً يرسُفُ في أصفادِه وأغلاله منتبذاً ناحيةً ولا يدخُلهُ إلا أبناء الفقراء والمساكين =ونازعتْه تعليمَ الأمّة المدارسُ الجديدة التي وضع أساسها رفاعة الطهطاوي في مدرسة الألسن ، وانشطر تعليم الأمة شَطْرين ، ونمت هذه المدارس وتكاثرت ، يدخلها أبناء الموسرين والمستورين، وجعلت الهوَّة بين الأزهر والمدارس تتَّسع ، وأصبحت المناهج تتباينُ تبايُناً شديداً . أمّا مناهج الأزهر في عُزْلته فجعلت تضعُف وتَذْوِي وهي على بنائها القديم ، وأما مناهج المدارس فجعلت تنمو ولكنّ نموَّها قائم على القشور التي تغُرُّ ولا تُغْني فتيلاً ، على نفس الأساس الذي وضعه رفاعة الطهطاوي ، وجعلت تزدادُ تباعُداً مقطوعَ الأواصِرِ من « الثقافة المتكاملة» التي عاشت بها الأمة قروناً متطاولة . لم تكن هذه المدارس نابعةً من «الثقافة المتكاملة»

التي تجدّد نفسها تجديداً يـزيدها قوةً ووضوحاً ، بـل كانت غِراسـاً غريباً يـزيدها بُعْـداً وانقطاعـاً عن أصول «الثقـافة المتكاملة» لدار الإسلام في مصر ، ولا تكسِبُها قوَّةً ووضوحاً، بل تكسِـبُ أبنَاءَهـا تنكُّراً وإعراضـاً واحتقاراً أيضـاً لتلك «الثقافة المتكاملة» التي عـاشت بها أمَّتهم = وكـذلك صارَ أبناؤهـا حِزْباً جديـداً ، مَيْلُه وحُبُّه وإكبارُه للمصـدر الذي صَـدَر عَنْـه مـا تعلَّموه ولم يتعلمـوا غيره ، كما أرادَ نـابليـون بمشروعه الذي عَهِد به إلى خليفتـه « كليبر »، وطوّرهُ تطويراً كبيراً المسيو جومـار ، وتمَّ بذلك البـلاءُ الماحق ، والأمرُ لله من قبل ومن بعدُ .

ومضت الأيام والسنونُ ، حتى جاءَ الاحتلال الإنجليزي في ثـاني ذي القعـدة سنـة ١٢٩٩ هـ (١٥ سبتمبر سنـة ١٨٨٢م)، ويظل يرسِّخ قدميه في البلاد ، وبعد قليل رأى «الحزبَ » الـذي أنشـأه «الاستشراق » الفرنسيُّ غـالبـاً على

جمهور طلبة المدارس ، فبدأ «الاستشراق» الإنجليزي يدمِّر كل ما أنشأه الفرنسيس من مدارس ويشتتها ، فلما استقرت أقدام الاحتلال الإنجليزي في مصر ، رأى «الاستشراق» الإنجليزي أن يبدأ في تكوين « حزب » قويّ يناصره عن طريق التحكُّم في التعليم ، فأسند أمر التعليم إلى قِسيس مُبَشِّر عاتٍ خبيثٍ هو «دنلوب» فذُعر «الحزب الفرنسيّ» ونشرت جريدة الأهرام التي كان صَغْوُها كلُّه إلى الفرنسيس، خَبَرَ « دنلوب » بعبارة دالَّة كل الدلالة على هذا التحوُّل العظيم الذي أفزع حِزْب فرنسا ، فنشرت في عددها المؤرخ ، يوم ١٧ مارس سنة ١٨٩٧م ما يأتي :

«قُضي الأمر ، وصدر الأمرُ العالي بتعيين المستر دنلوب سكرتيراً عاماً لنظارة المعارف ، وقد شرعَ المستر دنلوب ، بعد الاتفاق مع اللورد كرومر ، في هدم الدراسة الثانوية التي هي أعظمُ أركان المعارف » .

فانظر إلى قول الأهرام « قُضي الأمرُ » ، وما تحمله هذه الجملة القصيرة من الرُّعب الدَّالّ على فزع «الاستشراق الفرنسيّ» من هذا الحَدَث المؤدّي إلى القضاءِ على «حزب فرنسا» الذي أنشأته المدارس القديمة ، وتخوفه من هذا «الحزب الإنكليزي» الجديد الذي يتولَّى «الاستشراق الإنجليزي» إنشاءه عن طريق المدارس التي سوف يشرف عليها «دنلوب» القِسيس المبشِّر الداهية .

ونقول نحنُ أيضاً : « قُضِي الأمر » ، وجاء «الاستشراق الإنجليزي » ليُحدِث في ثقافة الأمة المصرية صدعاً متفاقماً أخبثَ وأعتَى من الصَّدْع الذي أحدثه «الاستشراق الفرنسي» ، ووضع دنلوب أُسُس «التفريغ» الكامل لطلبة المدارس المصرية ، أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفِّق في دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ومَهَّدَ إلى ملئِه بماضٍ آخر بائدٍ في القِدَم والغموض ، لم يبق من ثَقافته شيءٌ البتّة ،

ليزاحم هذا الماضي الفارغُ بقايا الماضي المتدفِّقِ الحيِّ الذي يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصل ، ويجعل أجيال طلبة المدارس في حيرةٍ مدمرةٍ بين انتماءين ، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة في كتب أسلافهم ، وبين الانتماء إلى الفرعونية التي بادت وبادت ثقافتها ولم يبق منها إلا أطلالٌ من الحجارة ، مهما بلغت في العظَمة والجلال ، فهي فارغة من ثقافةٍ حيَّةٍ تتدفَّق في القلوب والعقول والألسنة ، إنّما هي آثارٌ لا تُغْني شيئاً ولا تُؤتي ثَمرة .

وأيضاً فإنَّ هذا «التفريغ» سوف ينشئُ أجيالاً من «تلاميذ المدارس» تَتَهتَّك علائقُها التي تربطُها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعياً وثقافياً ولُغَوياً ، حتى يتمَّ تفريغها تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُلِّه ، ثم يملأُ هذا الفراغَ علومٌ وآدابٌ وفنونٌ لا علاقة لها بماضيهم ، وإنّما هي علوم الغُزاةِ ، وفنون الغُزاةِ ، وآداب الغُزاةِ ، وتاريخ الغُزاة ،

ولغاتُ الغُزاةِ . ومع كُلّ ذلك ، فإن هذا القدرَ من العلوم والفنون والآداب إنما هي قُشُورٌ ومقتطفاتٌ تُوهمُ النفوسَ الظامئة المُفَرَّغة بأنها نالت شيئاً يُذْكر ، والحقيقة أنها نالتْ غذاءً تعيش به مَوْتى في صورة أحياء لا غيرُ]. انتهى كلام الأستاذ شاكر .

آثار الابتعاث ونتائجه :

لاشكَّ في أن للابتعاث وجهاً إيجابياً ، غير أننا هٰهنا نودُّ أن نذكر آثاره السلبية ونتائجه الوخيمة لنحذر وننذر أقوامنا من مغبة التساهل في هذا الأمر .

ونقرر في الوقت ذاته أنَّ أثمن مالدى القوم هو ذاك المنهج التجريبي الذي أورثهم هذه الحضارة العظيمة والمهارات الفنية واليدوية . وما المنهج التجريبي في ذاته إلا هدية الحضارة الإسلامية إلى العالم ... يجب أن يتذكر أبناؤنا أنَّ أسلافهم المسلمين هم الذين استخدموا هذا المنهج

وعلموه الناس ، وأن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى أوروبا عن طرق ثلاث :

١ـ اتصال الأوربيين بالمسلمين في الأندلس وصقلية .

٢ـ التجارة .

٣ـ الحروب الصليبية .

ونود أن نورد فيما يلي أهم آثار الابتعاث السلبية إضافة إلى الآثار المدمرة للابتعاث التي مرّ ذكرها في الفصل السابق ، وذلك فيما نقلناه عن الأستاذ محمود محمد شاكر :

إن من آثار الابتعاث والاستسلام له والمبالغة فيه تأكيد العبودية للغرب التي أرادوها في بادئ الأمر ، وتحققت لهم في نفر من المبعوثين .

إنّ الله عز وجلّ حرّم علينا مطلقاً التبعية للكفار ، وحظر علينا أن نكون ذيولاً لغيرنا . والاستسلام لفكرة الابتعاث

والمضي فيها إلى أبعد مدى يؤثر مثل هذا التأثير الهدام، ومن أجل ذلك وجب علينا أن نحول دون وقوع هذه الكارثة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران ١١٠]وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] وأمرنا عز وجل أن ندعوه في صلاتنا مرات ومرات أن يهدينا صراطاً متميزاً بأنه صراط الذين أنعم عليهم غير صراط اليهود وغير صراط النصارى(١).

فلابد من أن يكون الابتعاث بشروطه إجراء مؤقتاً، لا سيما وقد مضى علينا أكثر من قرن ونصف ونحن على اتصال بالحضارة الغربية وأصولها، وقد كان هذا كافياً لو

(١) وذلك في سورة الفاتحة .

كانت الخطة محكمة . ويجب أن تكون سياسة الابتعاث في نطاق ضيِّق ، وأن يستعاض عن ذلك بالزيارات العلمية ذات الهدف المحدد .

إنَّ صفوة الأذكياء وخيرة الشباب من أبناء المسلمين يدرسون الثقافة العصرية في أوربا وأمريكا ويخوضون خلال ذلك في لجة الحضارة الغربية ويعيشون الانطلاق الأخلاقي والتحلل السلوكي ، والنظرة المادية المسرفة والاتجاهات الإلحادية والسياسية من قومية واشتراكية وليبرالية ، فيرجع معظمهم دعاة متحمسين إلى تقليد الحضارة الغربية ونشر قيمها ومفاهيمها وتصوراتها .

بل رجع كثير منهم متشبعين بروح الغرب ، يتنفسون برئة الغرب ، ويفكرون بعقل الغرب ، ويرددون في بلادهم صدى أقوال أساتذتهم المستشرقين وغير المستشرقين،

وينشرون أفكارهم ونظرياتهم بإيمان عميق، وحماسة زائدة، ولباقة وبلاغة وبيان، ومن هنا يكون خطر هؤلاء أعظم من خطر أساتذتهم.

والخطورة البالغة تكمن ــ كما سبق أن أشرنا ــ في أن يتسلم هؤلاء المبتعثون بعد عودتهم مسؤوليات التوجيه والتربية والإعلام ... إنهم عندئذ يسلخون أمتهم عن دينها وقوميتها، ويقومون بعملية مسخ لواقعها وقيمها ومثلها.

وإننا لنشاهد دائماً أن الإنسان يتأثر بالبلد الذي يدرس فيه ويحاول دائماً وأبداً أن ينقل ما رآه في أثناء الدراسة إلى بلده، مع تفاوت بين هؤلاء الدارسين. تقول الكاتبة المسلمة الأمريكية مريم جميل في كتابها «الإسلام في مواجهة الغرب»:

(إن الحضارة الغربية بقوتها الاقتصادية والسياسية القائمة استطاعت أن تبسط نفوذها على العالم كله، ولما

استطاعت الشعوب الآسيوية والأفريقية أخيراً أن تنتصر في صراعها للحرية السياسية وتحررت من النير الأجنبي كانت حضارتها قد تحطمت قديماً .

إن قادة هذه الشعوب من غير استثناء تلقوا ثقافتهم في معاهد أوربا وأمريكا ، وكانت هذه المعاهد وأساتذتها قد علموهم أن ينظروا إلى تراثهم الثقافي القومي بنظر الاحتقار والازدراء ، وكانوا قد خضعوا عقلياً لفلسفات الحضارة المادية .

وهكذا فإن قادة آسيا وأفريقيا متفقون مع القادة الأوربيين والأمريكيين على أن الهدف الأسمى والمثل الأعلى للمجتمع البشري هو تقدمه عن طريق الصناعات الثقيلة ورفع مستوى الحياة المادية وتوسيع القوة الاقتصادية والسياسية)[1].

(١) « موقف العالم الإسلامي » ص ٩٧ .

والمثال القوي على ذلك الدكتور طه حسين ، الذي رجع إلى مصر ، فآلت إليه قيادة فكرية للمجتمع ، بسبب قيامه بالتدريس في الجامعة وتوليه الوزارة ، فقد كان عميد كلية الآداب بالقاهرة ومديراً عاماً للثقافة بوزارة المعارف ومستشاراً فنياً فيها وكان مديراً لجامعة الاسكندرية ثم وزيراً للمعارف[1] وبسبب الكتب الكثيرة التي ألفها وأذاعها في الناس ، ومما ضاعف خطره أسلوبه ، ذاك الأسلوب الرائع المبين السهل البليغ ، فقد نادى في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» بالأمور الآتية :

١ ـ الدعوة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها وقطع ما يربطها بقديمها وبأسلافها .

فهو يقول :

(١) « الاتجاهات الوطنية » ٢/ ٢١٤ .

(إن سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرّها ، حلوها ومرّها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب) [1].

يدّعي في هذا الكتاب بأن صلة مصر إنما هي بأوربا لا بالشرق يقول :

(إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط) .

وينعى على المصريين أن يروا أنفسهم شرقيين فيقول:

(١) « مستقبل الثقافة في مصر » ٤١ .

(فأما المصريون أنفسهم فيرون أنهم شرقيون ، وهم لايفهمون من الشرق معناه الجغرافي وحده ، بل معناه العقلي والثقافي ، فهم يرون أنفسهم أقرب إلى الهندي والصيني والياباني منهم إلى اليوناني والإيطالي والفرنسي، وقد استطعت أن أفهم كثيراً من الغلط ، وأن أفسر كثيراً من الوهم،ولكني لم أستطع قط ـ ولن أستطيع في يوم من الأيام ـ أن أفهم هذا الخطأ الشنيع أو أسيغ هذا الوهم الغريب).

٢ ـ وكذلك دعا الدكتور طه حسين إلى إقامة شؤون الحكم على أساس مدني لا دخل فيه للدين ، أي دعا إلى قيام حكومة لا دينية ، يقول في كتابه المذكور :

(وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول) .

ويدّعي : (أنّ المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع

العملية ، وعدلوا عن إقامتها على الـوحدة الدينية واللغوية والجنسيـة أيضاً قبـل أن ينقضي القـرن الثاني للهجـرة حين كانت الدولـة الأموية في الأندلس تخاصم الـدولة العباسية في العراق) .

٣ ـ وكـذلك دعا طـه حسين إلى إخضاع اللغة العـربية لسنة التطور ويقترح أن تكون الفصحى التي نزل بها القرآن لغة دينية فحسب كالسريانية والقبطية واللاتينية واليونانية ، عند أرباب النحل .

يقول : (وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون ، وليست أقل منا إيثـاراً لدينها ولا احتفاظـاً به ولا حرصاً عليـه ، ولكنها تقبل مـن غير مشقة ولا جهـد أن تكون لها لغتهـا الطبيعية المألوفة التـي تفكر بها وتصطنعها لتأديـة أغراضها ، ولها في الـوقت نفسـه لغتهـا الدينيـة الخاصـة التـي تقرأ بها كتبهـا المقدسـة وتؤدي فيها صـلاتها . فالـلاتينية مثلاً هـي اللغة

الدينية لفريق من النصارى ، واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر ، والقبطية هى اللغة الدينية لفريق ثالث ، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع) .

وهذا شيء خطير حقاً ، وإنْ كان يخفى ضرره على كثير من الناس .

ويقول الدكتور محمد محمد حسين تعليقاً على هذا النص وكشفاً عن خبيئه :

(ومن هذا نرى أنّ المؤلف لا يرى بأساً من أن تتطور لغة الكتابة والأدب في العربية حتى يصبح الفرق بينها وبين عربية القرآن الكريم مثل الفرق بين الفرنسية واللاتينية)[1].

ومثال آخر يصلح أن يكون برهاناً على ما يترك الابتعاث من تبعية للغرب في نفس بعض المبتعثين ، وهو ما ذكره أستاذنا الدكتور الشيخ مصطفى السباعي عن تجربته مع

(١) « الاتجاهات » ٢/ ٢٢٦ ط ١ .

واحد من هؤلاء التابعين ، فقال :

(لما كنّا طلاباً في قسم تخصص المادة في الفقه والأصول وتاريخ التشريع في كلية الشريعة وكان ذلك عام ١٩٣٩م عيّنت مشيخة الأزهر في عهد الشيخ المراغي رحمه الله ، الدكتور علي حسن عبدالقادر أستاذاً لنا يدرس تاريخ التشريع الإسلامي ، وكان قد أنهى دراسته في ألمانيا حديثاً ، وهو مجاز من كلية أصول الدين ، ومكث في ألمانيا أربع سنوات حتى أخذ شهادة الدكتورا ه ...

كان أول درس تلقيناه عنه أن بدأه بمثل هذا الكلام :

(إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي ، ولكن على طريقة علمية لا عهد لـلأزهر بها ، وإني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً فلم أفهم الإسلام ، ولكنني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا .

فعجبنا ـ نحن الطلاب ـ من مثل هذا القول ، وقلنا فيما بيننا : لنسمع إلى أستاذنا لعله حقاً قد علم شيئاً جديراً بأن نعلمه عن الإسلام مما لا عهد للأزهر به . وابتدأ درسه عن تاريخ السنّة النبوية ترجمة حرفية عن كتاب ضخم بين يديه، علمنا فيما بعد أنه كتاب جولد تسهير «دراسات إسلامية» وكان أستاذنا ينقل عبارته ويتبناها على أنها حقيقة علمية ، واستمر في دروسه ، نناقشه فيما يبدو لنا ـ نحن الطلاب ـ أنه غير صحيح ، فكان يأبى أن يخالف جولد تسهير بشيء مما ورد في هذا الكتاب)[1].

* ومن أخطر الآثار أن يعود المبعوث يحقق أغراض أعداء الأمة ، فمن المعلوم ـ كما أشرنا ـ أنّ حاجة المسلمين إلى العلوم التطبيقية حاجة ماسة ، ومع ذلك فإن السيد أحمد خان (المولود ١٢٣٢هـ (١٨١٧م) والمتوفى سنة ١٣١٥هـ

(١) «السنة» ١٩ـ ٢٠ ط ٢ .

(١٨٩٨م) ــ وهو نموذج من المبتعثين ــ كان يعارض في إنشاء دراسات علمية تجريبية في الجامعة التي أنشأها في الهند، وهو من الذين قضوا حقبة في بلاد الإنكليز، وهو كما يقول الأستاذ الندوي: (أول مسلم هندي سافر إلى الجزائر البريطانية في هذا العهد المبكر)[1]. وقد عاد وهو من أشدّ الناس حماسة للدعوة للأخذ بالحضارة الغربية خيرها وشرّها.

قال من مقال نشره في «مجلة عليكرة» في تاريخ ١٩ فبراير سنة ١٨٩٨م:

(إن الهند نظراً إلى حالتها الراهنة ليست في حاجة إلى تعليم الصنائع، إنّ الأهمَّ المقدم هو الثقافة الفكرية من المستوى الأعلى)[2].

---

(١) «موقف العالم الإسلامي» ٤١.

(٢) «موقف العالم الإسلامي» ٤٧.

وقد عارض أن يكون مشروع تعليم العلوم الصناعية على حساب تعليم الآداب الإنجليزية والدراسات الأدبية .

* ومن أخطر الآثار الانحراف العقيدي والانهيار الخلقي ، اللذان يصاب بهما كثيرٌ من أبنائنا الطلبة ؛ ذلك لأن عوامل الإفساد والإغراء ، والتشكيك والاغواء التي يتعرضون لها قد تتغلب على عناصر المقاومة التي تكون لدى بعضهم ، فالانطلاق من جوّ مجتمع مغلق إلى جو مجتمع مفتوح يحدث هزة عنيفة لا يمكن أن تتجاهل .

وهناك سببان رئيسيان للانحراف هما :الناحية الفكرية ، والناحية الخلقية :

فالطالب الناشئ يذهب إلى مجتمع يقوم نظام الحياة فيه على أساس تنحية الدين جانباً والتحلل من قيوده ، ويرى في هذا المجتمع ما يبهره من مظاهر التقدم والنظام ، فيكون في حالة نفسية تؤهله لقبول الشبهات ، وتُلقى إليه الشكوك

بشكل مدروس منظم ، ويكون هناك وحيداً يعيش بعيداً عن جماعة المسلمين ، فلا يتاح له أن يؤدي الصلوات في جوّها المؤثر ، ولا أن يحضر موسم العبادة العظيم في شهر رمضان ، مما يسهل على الكائدين إيقاع الانحراف عليه .

ومن الأسباب التي يكون الابتعاث واحداً منها تعرض أبناء المسلمين المقيمين في ديار الغرب إلى التنصير [1].

فقد نشرت (المسلمون) في العدد ذي الرقم ١٩ تاريخ ٢٧رمضان ١٤٠٥هـ .

[أن زعماء حركة التبشير قد عقدوا مؤتمراً بضاحية برمنجهام احتفلوا فيه بانتصارهم في كسب ٥ آلاف مسلم تحولوا إلى النصرانية ، وانتهوا من توزيع العمل في الفترة

(١) انظر في أساليب المبشرين في الدعوة إلى النصرانية في بلاد المسلمين كتاباً جمعه الأستاذ مصطفى فوزي غزال بعنوان « الحيل والأساليب في الدعوة إلى التبشير » .

المقبلة بحيث يتم التركيز على جذب الأطفال والشباب المسلمين في أمريكا وأوروبا، لأنهم يتحدثون الإنجليزية بطلاقة في حين يتحدث الرجال والشيوخ بصعوبة، الأمر الذي يؤدي إلى سهولة التبشير بين الأطفال والشباب وصعوبته بين كبار السن.

وقد طالب أعضاء المؤتمر بسرعة إيجاد فرص عمل للشباب المسلمين العاطلين في أوروبا، وإيجاد فرص عمل أخرى للفتيات المسلمات في أعمال التمريض والخياطة وغيرها، وقد طالب زعماء التبشير بتركيز نشاطهم على أطفال المسلمين في أوروبا وأمريكا لسببين:

١ ـ موضوع اللغة: فالأطفال الناشئون هناك يجيدون اللغة الأجنبية.

٢ ـ ولأن علاقتهم بأوطانهم ولغتهم الأم وتقاليدهم الدينية تتعرض إلى الضعف نتيجة نشأتهم في مجتمع

غربي].

ومن أقوى الأدلة على أن من يتعلم في ديار الغرب معرّض إلى الفتنة في الدين لاسيما إذا كان صغير السنّ أنّ الدراسة في مدارس الكفار القائمة في بلاد المسلمين تهدد العقيدة، وقد يخرج من يدرس فيها من الاسلام ويكون ملحداً، وقد يدخل في دين النصرانية، فكيف إذا كانت الدراسة في بلادهم وقد تنبه إلى هذا الخطر الشيخ محمد عبده فكتب مقالات يحذر المسلمين فيها من هذه المدارس، وكان ذلك قبل مائة وعشرين سنة كانت مقالات الشيخ محمد عبده في الوقائع المصرية تحت عنوان (تأثير التعليم في الدين والعقيدة).

كانت مقالاته أول ما نبّه إلى خطورة هذه المدارس على عقيدة أبناء المسلمين المتعلمين فيها، خاصة حين يدخلها الطفل صغيراً، وضرب مثلاً على ذلك (ماحدث منذ

سنوات أن أحد أولاد مصطفى المنشاوي أفندي واسمه أحمد أفندي كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الأمريكان البروتستانتية ، فاعتنق المذهب البروتستانتي ، ودعا والديه وإخوته إلى اعتناقه .

وأحدثت هذه المسألة ضجة كبيرة وتدخلت فيها الحكومة والقنصل الأمريكي ، وانتهت بأن سافر الولد إلى جهة لا يعلمها أهله .

كما يذكر حالة طالب آخر في مدرسة الفرير حاول رؤساء هذه المدرسة أن يجعلوه يسافر إلى أوروبا بدون علم أهله . وعندما كتبت جريدة الوقائع عن تغيبه تنبه ولجأ إلى خاله في الاسكندرية ، ثم عاد مع والده إلى القاهرة)[1].

أقول :

---

(١) الشرق الأوسط ص ١٢ تاريخ ٩/ ١٠/ ١٩٨٥م.

إذا كان تأثير المدارس الأمريكية والأوروبية بهذه الدرجة وهذه المدارس تقوم في بلاد المسلمين وسط التقاليد الاسلامية ، والعادات المحلية والطالب مقيم مع أهله فما القول في أثر هذه المدارس في ديار الغرب؟

وهناك الناحية الخلقية التي قد تكون أشد ظهوراً بالنسبة إلى الطلاب المسلمين في ديار الغرب ، إذ ينتقل هذا الشاب من بلاد درج الناس فيها على سلوك معين ، وأعراف خاصة، فمن ذلك أنّ المرأة المحترمة لا تكون إلا أماً أو أختاً أو بنتاً أو زوجة أو امرأة أجنبية عفيفة رصينة ، ويسافر الفتى وهو في ذروة التهاب الغريزة الجنسية ، ويذهب إلى مجتمع لا يلتزم ذاك السلوك ، ولا يعترف بهاتيك الأعراف ، ويلقى المرأة فيه متاعاً مباحاً لمن شاء من الناس ، ولا يرى كثير من الناس هناك في ذلك شيئاً كبيراً .

وليس هناك فتنة أضر على الرجال من النساء كما يقول

النبي صلى الله عليه وسلم .

هذان هما السببان الرئيسيان في الانحراف .

***

وهكذا يتجلى بوضوح أن من الأضرار التي تترتب على الابتعاث الفساد الخلقي الذي ينغمس فيه بعض الشباب المسلمين عندما يذهبون إلى تلك الديار ، إذ ينتقلون من مجتمع محافظ يعاني الشباب فيه من مشكلة الجنس ما يعاني إلى مجتمع منطلق إباحي ، فيقع كثير من الشباب بجريمة الزنا والذي يتزوج منهم ينكب بذاك الزواج ، وإذا وقع الانفصال أخذت الزوجة الأولاد ونشأتهم على النصرانية . وإن استمر في زواجه كان في جحيم إلا من رحم ربك وقليل ما هم .

بل قد تقع الطالبة المسلمة فيما يقع به زميلها الشاب،

فقد نشرت جريدتا الأهرام والأخبار في عدد ١٩/٨/ ١٩٨٠م ما ملخصه [أن فتاة مسلمة عادت لأمريكا هرباً من محاكمتها ، فقد كشفت هذه الطالبة (هـ . ط) لدى وصولها إلى مطار دالاس الدولي قادمة من أسبانيا عن تهديد المسؤولين في سفارة بلدها في مدريد لها بتوجيه تهمة الزنا لها وترحيلها بالقوة إلى بلدها، لزواجها من شاب أمريكي دون الحصول على موافقة والدها .

وكانت تزوجت وهي في الثانية والعشرين من عمرها من الشاب الأمريكي الذي يبلغ ٢٦ عاماً في حفل أقيم في ٢٩ يونيو الماضي بالمركز الإسلامي في شمال مدينة دالاس بعد أن أشهر الشاب إسلامه في بداية الصيف الحالي] .

أقول : إذا كان هذا الشاب قد أشهر إسلامه فهناك حوادث مشابهة لا يعبأ بطلاها بهذه الأمور ، ويقدمان على الزواج والشاب باق على كفره ، وقد تكون العلاقة الجنسية

بينهما قائمة على الصداقة والاستلطاف دون زواج على غرار ما يفعل القوم هناك والعياذ بالله تعالى .

* ومن الآثار الخطيرة تخلف المبتعث في لغته الأم ، وقد يكون تخلفه هذا سبباً يدعوه إلى أن يقف مواقف مسيئة للغته وأمته ، فيؤكد ـ مثلاً ـ بقاء تدريس العلوم التجريبية والتطبيقية باللغة الأجنبية ، وذلك ليغطي عجزه وليؤدي العمل المطلوب منه بأسهل سبيل وأقل جهد .

* ومن الآثار الخطيرة أن يعود بعض هؤلاء العابثين جهلة فارغين ، وهم يحملون شهادات ، ولكنهم لم يستطيعوا التفرغ لطلب العلم لأنهم كانوا عنه في شغل... هذا ، إذا عادوا ... وإن لم يعودوا فالأمر معروفة خسارته .

ومن الآثار الخطيرة هجرة العقول والكفاءات إلى بلاد الكفار ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك عند حديثنا عن واقع المبتعثين.

قال الدكتور تركي رابح عمامرة في مقال نشره في «جريدة الشرق الأوسط» :

[وتقدر الدراسات العربية والدولية عدد الكفاءات العربية التي تركت أوطانها وذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا بأكثر من مائة ألف عالم وطبيب ومهندس وخبير بعد أن صرفت عليهم بلدانهم العربية أموالاً طائلة من أجل تعليمهم وتكوينهم، لكي يساعدوها على التغلب على التركة التي ورثتها عن الاستعمار الأوربي في المجالات الاجتماعية والتربوية والثقافية والفلاحية والصناعية] (١).

ثم قال في نهاية مقاله :

[إن الفرد لايهاجر من وطنه إلى وطن آخر ، لأن هناك عوامل نفسية تدفعه إلى ذلك فحسب ، بل إن هجرته هي

(١) الشرق الأوسط تاريخ ٣/ ٩/ ١٩٩٠م.

نتيجة لشعوره في الغالب بالغربة والاغتراب داخل وطنه ، ولشعوره كذلك بأنه غير مفيد لمجمل التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لبلاده... إن الاستعمار البائد لم يكفه نهب ثرواتنا المادية فقط ، بل امتدَّ نهبه بعد الاستقلال إلى نهب ثرواتنا الفكرية والعلمية حتى يتركنا في حالة تبعية دائمة له][1].

ومما يسهل عملية الهجرة كون الإنسان قد درس في بلد وعرف لغة أهله وأوضاعهم ، وهذا متحقق في الابتعاث .

وإنه ليحزن كل غيور أن يكون هؤلاء المهاجرون من النخبة ، فقد جاء في تحقيق نشر بعنوان « هجرة العقول تزيد تخلُّف الدولة النامية » أن٩٨٪ من المهاجرين المصريين يحملون مؤهلات عليا [2].

(١) الشرق الأوسط تاريخ ٣/٩/١٩٩٠م.
(٢) الشرق الأوسط تاريخ ٢٦/١١/١٩٨٧م.

ملاحظة لابد منها :

إن هذا حال معظم الراحلين إلى ديار الغرب من أبناء المسلمين ، وليس هذا الحكم كلياً مطرداً ينسحب على كل مبعوث وراحل ، بل لقد رأيت في رحلتي الأخيرة إلى أوروبا شباباً يحقر المرء نفسه واجتهاده في العبادة إذا قاس نفسه إليهم ، لقد رأيتهم شباباً صالحين يندر وجودهم في هذا العصر صلاحاً وديناً وتقَوى وابتعاداً عن المحرمات .

ورأيت هناك زوجات هؤلاء الشباب فتيات مسلمات محافظات على الحجاب وقراءة القرآن وحضور مجالس العلم الديني ، وهن يصلحن أن يكنَّ مثالاً وقدوة صالحة للنساء في عصرنا هذا .

ولكن عدد هؤلاء بالنسبة إلى مجموع الطلاب المبتعثين عدد قليل يجعلهم شواذ ، والشاذُّ يؤيد القاعدة ولا يخرقها .

★★★

يتلخص لنا من هذا البحث ، أنَّ الابتعاث إلى ديار الغرب ظاهرة رافقت تخلّف المسلمين وتقدم الكفار ، في مجال المادة والعلوم التجريبية ، وأنَّ الابتعاث شجعته أيد أثيمة استغلت دوافعه السليمة البناءة ، وأصرت على أن يستمر حتى بعد مرور ما يزيد على قرن ونصف من الزمان ، لأنها رأت آثاره الهدامة الخطيرة التي تفتك بالأمة وكيانها وكرامتها .

وقد ألممنا بنبذة تاريخية سريعة ، وعرضنا لبعض النماذج التي انهزمت أمام حضارة الغرب ، فعادت معولاً يهدم في بناء أمتها ويقوض صرح كرامتها ، وقررنا أنَّ آثاره اعتقادية وخلقية وعلمية وسياسية ، وضربنا على ذلك بعض الأمثلة . وأشرنا خلال البحث إلى بعض المشكلات وما نراه في حلها.

المقترحات :

إزاء هذه المخاطر الجمة نرى ما يأتي :

١ ــ لا ابتعاث إلا عند الضرورة ، ويمنع الابتعاث في علوم الدين واللغة والعلوم الإنسانية إلى ديار الكفار ، ويقتصر على ما تدعو إليه الضرورة في العلوم التجريبية والتطبيقية .

٢ـ لا ابتعاث إلا بعد الماجستير .

٣ـ انتقاء الطالب المراد ابتعاثه .

٤ ـ تعريف الطالب المبتعث بدينه وتسليحه بسلاح العلم ، وإظهار عوار الديانات الأخرى ، والأنظمة السياسية القائمة على أساس غير الإسلام .

٥ـ تعريف الطالب بالمشكلات التي سيواجهها عند السفر ، مثل أنواع الأطعمة والأشربة المحرمة وما إلى ذلك .

٦ـ مساعدة الطلاب في اختيار الجامعات الجيدة .

٧ ـ إرسالهم إلى البلاد التي فيها تنظيمات طلابية إسلامية ، وتعريفهم بها وربطهم بعناصرها .

٨ـ إلزام الطالب المبتعث بأن يكون متزوجاً ، وأن تكون زوجته معه .

وإذا استطاعت الدول الإسلامية بما آتاها الله من إمكانات مادية ، أن تأتي بالطاقات العلمية إلى بلادها ، وتكون الدراسة هنا في ديار المسلمين ، فإن ذلك أفضل وأكمل .

وينبغي أن نقتنع بأن هذا الابتعاث إجراء مؤقت حتى تقوم في دنيا المسلمين دراسات عليا أصيلة ، ويمكن لنا إذا قامت هذه الدراسات ، أن نستعيض بالزيارات العلمية عن الدراسة الطويلة ، فيطلع الزائرون ـ بين حين وآخر ـ

على ما جدَّ من العلوم والمخترعات .

وأخيراً : فإني أود أن أورد في نهاية هذا البحث الكلمة التي وجهتها إلى أعضاء المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة بعد أن ألقيت بحثي عن الابتعاث قلت:

أيها السادة إن مؤتمركم يناقش موضوعاً من أخطر موضوعات الإسلام في هذا العصر ، وهو موضوع الدعوة إلى الله ، ولقد سبق أعداؤنا إلى مؤتمرات عدة للكيد للإسلام .

فإن أنتم كنتم على مستوى الحاجة ، وخرجتم بتوصيات جادة ، تأخذ طريقها إلى التنفيذ ، أحسنتم لأنفسكم وأُمتكم وإلا فإني أخشى أن يكون ضرر هذا المؤتمر أكبر من نفعه .

فلنتصور عظم هذه المسؤولية التي نتصدى لحملها، وَلْنَعِ حقيقة موقفنا في عصرنا ، ولنتذكر أنَّ لنا وقفة بين

يدي الله يحاسب كلاً منا عن علمه ماذا عمل فيه .

وأسأل الله أن يوفقكم ويسدد خطواتكم على طريق الحق وينفع بكم إنه سبحانه سميع مجيب ، والحمد لله رب العالمين .

محمد بن لطفي الصباغ